الفرسان الثلاثة

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

دار العلم للملايين

الفرسان الثلاثة

دار العلم للملايين

هذه الرواية

- قصة وضعها الكاتب الفرنسي الكبير الكسندر دوما الأب عام ١٨٤٤ .
- ثلاثة فرسان بواسل هم « آثوس » و « بورتوس » و « آراميس » انضم اليهم في ما بعد فارس مغوار هو « دارتانيان » يقومون بضروب من الأعمال الجريئة دفاعاً عن الملكة « آن » زوجة لويس الثالث عشر التي أراد الكردينال ريشيليو ان يلوث سمعتها .
- كيف كانت خاتمة الصراع بين الملكة والكردينال ؟ الجواب في ثنايا هذه الرواية الخالدة .

المكتبة العالميّة
للفتيان والفتيات

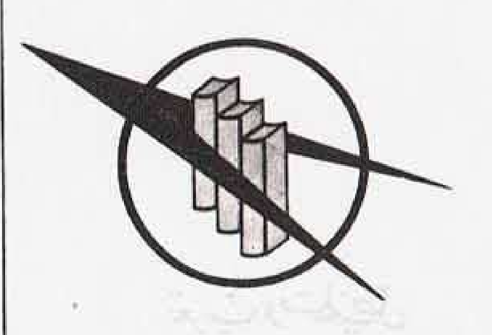
الفرسان الثلاثة

تأليف
اسكندر دوما

تعريب وتلخيص
أكرم الرافعي

دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢-٢٧-٢٩١٠٢

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٧٥
الطبعة السابعة
حزيران (يونيو) ١٩٨٦

١ . هبات ثلاث من دارتانيان الأب

في أوّل اثنين من شهر نيسان عام ١٦٢٥ وقع حادث في قرية « مونغ » بثّ الذُّعرَ في قلوب الأطفال والنساء ، إذ سمعوا البعضَ يتنادَوْن ويُوصي كلٌّ منهم رفيقَهُ بأن يرتدي دِرْعَهُ ويحملَ بندقيّتَهُ . وتجمّعَ الفضوليّون عند نُزُل القرية ، حيث عرَفوا سببَ تلك الضجة .

كان هناك شابٌ في نحو الثامنةَ عشْرةَ . مستطيلُ الوجه ، أسمرُ اللون بارزُ عضلات الفكّيْن ، مما يدُلّ على أنه من أهالي غسقونية . وكان يرتدي لباساً أزرق ، ويعتمر طاقية زيّنت بريشة ، وكان يتقلّد سيفاً ويمتطي حصاناً .

كان هذا الحصانُ عجيبَ الشكل ، إذ كان عبارةً عن كديشٍ أصفر ، لا وبَرَ على ذَيْلِه . وكان يسيرُ منخفضَ الرأس إلى درجةٍ كبيرة . وقد فعلت هذه الغرابةُ فعلَها في قريةِ مونغ ، التي دخلها الشابّ دارتانيان قبل ذلك بنحو رُبع ساعة .

والواقعُ أن الشابَّ ، وهو فارسٌ مدرَّب ، كان يُدرِك غرابةَ ذلك الحصان ، لذلك كان متضايقاً عندما قدّمَ له والدُه

الفرسَ قبل رحيله . فقد قال له : « يا بُنيّ ! إن هذا الفرَس قد وُلِدَ في بيت أبيك منذ ثلاثةَ عَشَرَ عاماً ، وظلّ فيه حتى هذه اللحظة ، فلا تبعْهُ ، وإذا خرجتَ به في حملة فراعِه كما تراعي خادماً عجوزاً » . ويومَها زوّدَه ببعض النصائح قائلاً : « حافظْ على اسمِكَ النبيلِ في البلاط ، كما حافَظَ عليه آباؤُك منذ أكثرَ من خمسمئةِ عام. لا تحتمِلْ شيئاً إلا من سيادة الكردينال والملك . فبالشجاعة وَحْدَها يشقّ النبيلُ طريقَه . أنتَ شابٌ وعليكَ أن تكونَ مِقْداماً لسببَيْن اثنين ، أوّلُهما أنكَ غَسْقوني ، والثاني أنك ابني ، أنا ! لا تَرْهَبِ الفُرَصَ ، واطلُبِ المغامرات . ليس لديّ ما أعطيك إياه . يا بُنيّ ، سوى خمسةَ عشرَ ريالاً وحصاني ، وهذه النصائح التي سَمِعْتَها . وستُضيفُ أمُّكَ إلى هذا مَرْهَماً أخذَتْ وَصْفَتَهُ عنِ امرأة بوهيمية ، وهُوَ ذو تأثيرٍ عجيب ، إذ يَشْفي كافّةَ الجُروح التي لا تصلُ إلى القلب . وليس لديّ ما أضيفُهُ سوى أن أوصيكَ بأن تترَسّمَ خُطى السيّد دي تريفيل ، الذي كان جاراً لي في الماضي ، والذي كان لَهُ شرَفُ اللعب صغيراً مع مليكنا لويس الثالث عشر ؛ وها هوَ قد أصبحَ قائداً لفرقة الفرسان التي يُجِلّها الملك ، ويخشاها الكردينال . لقد بدأ حياتَه مِثْلَكَ ، فاذهَبْ إليه وسلّمْهُ رسالتي هذه ! » .

ومضى الشابّ بعطايا أبيهِ الثلاث ، ألا وهي الريالاتُ

الخمسةَ عَشَرَ والفرَسُ والرسالة . ولكنّه ظلّ طولَ الطريق متوتّرَ الأعصاب ، يرى في كلّ ابتسامة سُبّةً وتحدّياً . ولكنّ الذين كانوا يبتسمونَ لدى مَرأى كديشه العجيب كانوا يُديرون وُجوهَهُمْ ، إذ يصطدِمونَ بنظراتِ الفارس الوحشية ؛ لذا لم يشتبكْ معَ أحدٍ إلا عندما وصلَ إلى نُزُلِ القرية . فقد رأى ، وهو يترجّل ، نبيلاً طويلَ القامة ، في وجههِ تعالٍ وعبوس ، يتحدّثُ إلى رجُلَيْن في إحدى نوافذ الطابقِ الأرضي ، فيُقَهْقِهُ الرجلان . وكان الحديثُ يدورُ حولَ فرَس دارتانيان . فوجّه دارتانيان نظرةً نارية إلى النبيل ، ثم تقدّمَ ويدُهُ على مَقْبِض سيفه ، وقال : « إيه ! أيها السيد ! هل لك أن تخبرَني بما يُضحِكُكَ لنضحكَ معاً ؟ ! » .

فحوّلَ النبيلُ نظرَهُ من الفرَس إلى الفارس ثم خرج متمهّلاً وجاء ليقفَ على خطوتين من دارتانيان ، الذي أخرج جزءاً من سيفه . قال الغريب : « من الممتع أن ينظر المرء إلى حصانك ! » . ثم استدار متوجّهاً نحو الباب الذي كان يقفُ أمامَهُ جوادٌ مُسْرَج . هناك جرّدَ دارتانيان سيفَهُ وصاح : « إستدِرْ ، استدِرْ ، ياسيدي الهازىء حتى لا أضربَكَ من الخلف ! »

واستدار الرجل وقال وهو ينظر إلى الشاب بكثير من الدهَش والسخرية : « تضربني أنا ؟! أنتَ مجنون حقاً ! » .



دارتنيان يسرع الى خارج الفندق

فسدَّدَ اليه دارتانيان ضربةً برأس السيف : ولكن الرّجُلَ جرّدَ سَيْفَهُ واتخذَ موقفَ الدفاع عندما رأى أن المسألةَ أصبحت جِدّيّة . ولكنْ في هذه اللحظة هاجمَ الرجلان وصاحبُ النّزْل دارتانيان بالعِصِيّ . فوقفَ الرّجُلُ يتفرّجُ بعد أن أعادَ سيفَهُ إلى القِراب . أما دارتانيان فقد انكسَرَ سيفُهُ بضربةِ عصا وشُجَّ جبينُهُ بضربة أخرى . فوقَعَ على الأرض فاقدَ الوَعْيِ تقريباً . ونَقلَهُ صاحبُ الفندق إلى المطبخ خَشْيَةَ أن تؤدّيَ الفضيحةُ إلى تشويه سمعة فندقِه . وقد نَقَلَ إلى النبيل أن الشاب كان يهدّد ويتوعّد قائلاً : « سنرى ما رأيُ السيد دي تريفيل في هذه الإهانة التي لحقَتْ بشخصٍ تحت حمايته ! » . كما أخبره أن في جيب الشابَ رسالةً موجّهَةً إلى السيد دي تريفيل .

عندما عاد دارتانيان إلى نفسه كان معصوبَ الرأسِ . وكان دون صُدَيرة . وقد أفهمَهُ صاحبُ النّزُلِ أن من الأفضل له أن يرحل لأن رجالَ الشرطة قد يلاحقونه . وكان أوّل شيءٍ وقع عليه نظرُ دارتانيان . من نافذة المطبخ . غريمَهُ الذي كان يتحدّثُ إلى سيدة جالسة في عرَبَةٍ ثقيلة يجرّها جوادانِ . كانت السيّدة تبدو في الثامنة والعشرين من العمر ، وتتمتّعُ بجمالٍ أخّاذ . وكانت تقولُ لمحدّثها : « إذن فنيافتهُ يأمرني ... » .

— « بأن تعودي فوراً إلى انكلترا ، وتخبريه حالاً إذا

غادر الدوق لندن ! » .

— « حسناً ! وأنتَ ، ماذا ستفعل ؟ » .

— « أنا عائدٌ إلى باريس ! » .

— « دون أن تعاقبَ هذا الفتى الوَقِح ؟ » .

في هذه اللحظةِ انطلقَ دارتانيان ، الذي سمعَ كلَّ شيء نحو الباب ، وصاح : « هذا الفتى هو الذي يعاقبُ الآخرين ! في هذه المرّةِ لن تَنْجُوَ مني . فلا أعتقدُ أنك ستحاول الهربَ تحت نظرِ السيدة ! » .

قالت « اللايدي » وقد رأتِ النبيلَ يُمْسِكُ بمقبض سيفه : « فكّرْ أنّ أيَّ تأخيرٍ يمكنُ أن يُضيعنا ! » .

— « أصبتِ ! إذن إذهبي ، وسأمضي أنا من ناحيتي ! »

فانطلقت العربةُ وانطلقَ الفارسُ في الاتجاهِ المقابل ووراءه خادمُهُ . أما دارتانيان فكانَ يصيح : « أيها الجبان أيها النبيل المُزيَّف ! » . ثم أُغميَ عليه مرّةً أخرى .

في اليومِ التالي نهضَ دارتانيان في الساعةِ الخامسة فهبطَ إلى المطبخ حيث حضّرَ المَرْهم الذي أعطَتْهُ والدته وَصْفَةَ تركيبهِ . وبعد أن وضعَ المَرْهَمَ على جُرْحِهِ راح يفتّشُ عن رسالة والدهِ إلى السيّد دي تريفيل فلم يجِدْ لها

للسيد دي تريفيل ، والسيد دي تريفيل سَيَشْكوهُ بدَوْرِهِ إلى الملك ! » .

ثم أخرجَ ريالَيْن ألقاهما إلى صاحب الفندقِ الذي رافقه حتى الباب الخارجي . وركب حصانَهُ متوجّهاً إلى باريس . وعلى باب القدّيس أنطوان باع الفَرَسَ بثلاثة ريالات ، ودخل العاصمة سيراً على الأقدام ، متأبّطاً صُرّةً فيها بعض الأشياء الضرورية . وفي شارع « الحفّارين » ، بالقرب من « اللوكسمبورغ » ، عثر على سَقيفة فاستأجرها ؛ وقضى قبلَ الظهر في ترقيع صُدَيرته التي تمزقت أثناء المعركة . ثم توجّه بعد ذلك إلى رصيف الحدّادين حيث طلب تركيبَ نصلٍ لسيفه . وعاد بعد ذلك إلى اللوكسمبورغ يسأل عن منزل السيد دي تريفيل ، فوجد أنه يقطنُ قريباً من سَكَنه ، في شارع « برج الحمام القديم » .

٢ . عند السيد دي تريفيل

كان لويس الثالث عشر يقدّر تريفيل تقديراً بالغاً ، ولهذا جعله قائداً لفرسانه ... أما هؤلاء الفرسان ، فرسانُ

٦ . بروز دارتانيان

بعد نصف ساعة عاد دارتانيان إلى منزله والغضب بادٍ عليه فتلقاه أصحابه بالسؤال عما جرى له. فقال وهو يُلقي سيفَهُ على السرير : « لقد ضاع مني مرّةً أخرى! اختفى كالطيف! تصوروا انه أضاع عليّ باختفائه ما يقاربُ المئة بستول ! » .

قالوا : « وكيف ذلك ؟ » .

فروى لهم ما حدثَ ، فقال أتوس : « ولكن .. هل من الحكمة أن يُعرّض أربعةُ رجالٍ حياتهم للخطر من أجلِ خمسينَ أو ستين بستولاً ؟ »

— « أنا لستُ قلقاً على السيدة بوناسيو ، بل على الملكة ، التي يُهمِلُها الملك ويضطهدُها الكردينال . لقد أصبحتُ مقتنعاً بأن خطفَ المرأةِ الوفيّةِ للملكة ذو صلةٍ بوجود الدوق بكنغهام في باريس ! » .

في هذه اللحظة سُمِعت خطىً عَجلى تصعدُ السلّم ، ثم فُتحَ البابُ واندفع بوناسيو إلى داخل الحجرة وصاح : « أنقذوني ، أيها السادة ! إن ورائي أربعةَ رجالٍ أتَوْا للقبضِ عليّ ! » .

قال دارتانيان وقد رأى بورتوس وأراميس يقفان ويهمّان بتجريد سيفيهما : « مهلاً ! .. ينبغي لنا أن نتحرّى الحكمة في هذه المسألة . »

فرد بورتوس : « ولكننا لا نستطيع أن ندعَهم ... »

فقاطعه أتوس قائلاً : « دَعْ دارتانيان يتصرّف .. إنه أعقلُنا جميعاً ! » .

وهنا كان الرجالُ الأربعةُ قد أصبحوا عند الباب ، ولكنّهم تردّدوا في الدخول عندما شاهدوا الفرسان . فقال دارتانيان : « تفضلوا ، أيها السادة ! إنكم في منزلي ، ونحن جميعاً خُدّامٌ أوفياءُ للملكِ والسيد الكردينال » .

فسأل القائد : « إذن فأنتم لا تعارضوننا في تنفيذِ الأمرِ الذي أُصدِرَ الينا ؟ »

— « على العكس تماماً ! »

فقال بوناسيو لدارتانيان بصوت هامس : « ولكنك وعدْتني ... » فأجابه دارتانيان بالهمس أيضاً : « نحن لا نستطيعُ أن نساعدَكَ إلا إذا كنا طلقاء .. وإذا بدا علينا أننا نريدُ إنقاذَكَ فسيُلقى علينا القبضُ كذلك ! » ثم قال رافعاً صوته : « تعالَوْا ، أيها السادة ! ليس هنا ما يَحملُني على الدفاع عن هذا الرجل .. لقد رأيتُهُ اليومَ للمرة الأولى ، وقد جاء يطالبني بإيجار الشقة ، فهو يملك هذا المنزل ! » .

ولما أصبح الرفاق الأربعة وحدهم صاح بورتوس : « يا لبَشاعة ما صنعتُم !.. أربعةُ فرسان يتخلّوْن عن رجلٍ مسكينٍ يستجيرُ بهم ! » فردّ عليه أراميس : « بورتوس ، لقد قال لك أتوس إنك أحمق ، وأنا من رأيه » .

— « إذن فأنتم توافقونَ على ما فعلَ دارتانيان ؟ ! »

قال أتوس : « إنني لا أوانقه على ما فعلَ وحَسْبُ ، بل أهنئُهُ عليه ! »

قال دارتانيان : « والآن ، أيها السادة ، ليكنْ شعارُنا : الكلّ للواحد والواحدُ للكلّ ! »

فردّد الجميع : « الكُلّ للواحدِ والواحدُ للكلّ ! »

٧ . فخ في القرن السابع عشر

عندما كان يُلقى القبضُ على شخص ، في ذلك الزمان ، كانت الدولةُ تكتُمُ أمرَ إيقافه ، وتضعُ حرَساً على داره ، فلا يقصدُها قاصدٌ إلا ويُلْقُون القبضَ عليه. وهكذا أصبحتْ دار التاجر بوناسيو فخّاً لكلّ قاصد إليها . ولكنْ لما كانت شقّة دارتانيان تنفردُ بمدخل خاصّ فقد أُعفيَتْ من هذا التدبير . على كلّ حال لم يكن يأتي إلى مسكنِ دارتانيان سوى الفرسان الثلاثة الّذين اهتموا بالمراقبة والتحرّي من جهتهم للكشف عن خاطف السيدة بوناسيو . بل سألوا السيد دي تريفيل ؛ فقال إنه لا يعرفُ شيئاً . إلا أنه لاحظ بعضَ القلق على الكردينال والملك ، ورأى عينَي الملكة محمرّتَين ، مما يدُلّ على أنها أرِقَتْ أو بكت ؛ وقد لفت ذلك نظرَهُ هذه المرة . بالرغم من أن الملكة لم تكُفّ ، منذ زواجها ، عن البكاء والسهر . وإزاء ذلك أوصى السيد دي تريفيل فرسانَهُ الثلاثةَ بالحِرْصِ على خدمةِ الملكِ والملكة .

أما دارتانيان فقد لازمَ حُجرتَهُ ، وراح يراقبُ الذين يأتون ليقعوا في الفخ . وقد نزع خشبَةً من الأرضيّة فأصبح قادراً على سماعِ ما يدورُ في الحجرة السفلى بين المحقّقين والمعتقَلين .

في اليومِ التالي لاعتقالِ التاجر ، سمعَ دارتانيان قَرْعاً على باب بوناسيو ، وكانت الساعةُ تبلغُ التاسعةَ ليلاً . ثم فُتِحَ البابُ وأغلق : لقد وقع الزائرُ في الفخّ . فانبطَح دارتانيان على الأرض وراح يتسمّع . وسُرعانَ ما سمع صياحاً وأنيناً : « يا للشيطان ! إنها امرأة ! .. إنهم يفتّشونها وهي تقاوم .. يا للأنذال ! » .

كانت المرأةُ تقول : « قلتُ لكم إنني أنا صاحبةُ المنزل ! أنا مدام بوناسيو .. أنا أعملُ عند الملكة ! » .

— « لقد كنّا في انتظارك ! » .

وبات صوت السيدة مختنقاً . فصاح دارتانيان : « إنهم يأخذونها ! بلانشيه ! إذهبْ إلى أتوس وبورتوس وأراميس وقل لهم ليأتوا مُسلّحين ! .. ولكن .. صحيح أتوس عند السيد دي تريفيل ! .. سأهبطُ من هذه النافذة ! » .

وتعلّق بالنافذة ، وأصبح عند الباب ، فقرعَهُ . فسكتت الضجّة وفُتِحَ الباب ، فاندفعَ إلى الداخل وسيفُهُ مجرّد . هنالك سُمِعت جلَبة وتحطُّمُ أثاث ، ثم فُتِحَ البابُ وخرج منه أربعة أشخاص يرتدون السّواد وولّوا هاربين . لقد

ينتصر دارتانيان عليهم لأن واحداً منهم فقط كان مسلّحاً .

كانت المرأة المسكينة في شبْه غيْبوبة فألقى عليها نظرةً سريعة ، فإذا هيَ شابةٌ تناهزُ الخامسةَ والعشرين سوداءُ الشّعر زرقاء العينين . أما يداها البيضاوانِ فلم تكونا ناعمتَيْن كما ينبغي . ورأى على الأرضِ منديلاً من الباتيستا يحملُ نفسَ الرقمِ الذي يحملُهُ المِنديلُ الذي وَجَدَه عند قدَمَيْ أراميس ، وكان سبباً في التحدّي الذي كاد يُؤدّي إلى مبارزةٍ بين الاثنينِ قبل أن يُصبحا صديقَيْن . فوضع المنديلَ في جيب مدام بوناسيو التي بدأت تستردّ وعيها .

ولما رأت أن الجلاّديْن قد ذهبوا وأنها أمامَ الإنسانِ الذي أنقذَها ابتسمَتْ له وقالت : « دعني أشكرُكَ ، يا سيّدي ، لأنكَ أنقذْتَني .. وسأُثبتُ لك أنني لستُ ممن يُنكِرونَ الجميل ! .. ولكنْ ماذا كان يريدُ مني أولئك الرجالُ الذين ظننْتُهم لصوصاً في بادىءِ الأمر ، ولماذا لا أرى السيد بوناسيو هنا ؟ »

— « سيدتي ، هؤلاء الرجالُ أخطرُ من اللصوص فهم من حرَس الكردينال ! أما السيد بوناسيو فهو في سجن الباستيل ! » .

— « زوجي في الباستيل ؟ ! ماذا صنع ؟ »

— « كلُّ ما صنعهَ أنه زوجُكِ ! » .

— « إذن أنت تعرف ... ؟ » .

— « أجل أعرفُ أنكِ خُطفتِ ! » .

— « وهل تعرف من خطفني ؟ » .

— « رجلٌ في الأربعينَ أو الخامسةِ والأربعينَ أسودُ الشعر ، حنطيّ اللون ، على صُدْغِهِ أثرُ جرح ! » .

— « أجل ! إنه هو ! وزوجي ، هل يعرف أنني خُطِفْت ؟ » .

— « لقد علمَ بذلك من خطابٍ تلقّاه ! » .

— « وهل لديه فكرةٌ عن السببِ ؟ » .

— « إنه يعزو ذلك إلى مسائلَ سياسية ! .. ولكنْ كيف استطعتِ الهرب ؟ » .

— « اغتنمتُ فرصة ترْكِهِم إيايَ منفردةً ، فربطت الأغطيةَ وهبطْتُ عليها من النافذة. كنت أظنّ أن زوجي هنا .. مسكين ! أنا أعرفُ أنه غيرُ قادرٍ على حمايتي ، ولكنْ بما أنه يستطيعُ أن يخدمَنا في مجالٍ آخر فقد جئتُ لإخباره » .

— « بماذا ؟ » .

— « لا أستطيع أن أبوحَ بهذا السرّ لأنه ليس سرّي أنا ! » .

— « قبل كل شيء يجبُ أن نغادرَ هذا البيتَ لأنه غيرُ ملائم لتبادل الأسرار » .

وأخذَها إلى شقّة أتوس الذي كان غائباً ، وطلب اليها ألا تفتحَ البابَ إلا إذا قُرِعَ بشكلٍ معيّن ، اتفقَ معها عليه. أما هي فكلّفتْه بأن يذهبَ إلى القصر ويتقدّمَ من باب معيّنٍ عليه حارسٌ اسمه جيرمان ، فيقول له كلمةَ السر ،

وهي « تُورْ وبروكسل » ، وعندها يطلب منه أن يدعو خادم الملكة « لابورت » .

قال : « وعندما يأتي لابورت ؟ » .

— « أرسِلْهُ إليّ ! » .

— « وكيف لي أن أراك بعد ذلك ؟ » .

— « إعتمِدْ عليّ في هذا ، وكن مطمئناً ! » .

ونفّذ دارتانيان بالدقّة ما طلبَتْ إليه . فلما أخبر لابورت بكل ما حدَثَ ودَلّهُ على المنزل ، جرى هذا ليذهب إلى مدام بوناسيو ، ولكنه ما لبث أن عادَ إلى دارتانيان وقال له : « أيها الشابّ ! لديّ نصيحة أُسديها إليك ! إن ما فعلتَهُ سيجلب لك بعضَ المضايقات ، فهل عندك صديقٌ ساعتهُ تتأخر ؟ »

— « وما فائدة هذا ؟ » .

— « إذهَبْ إليهِ لكي يشهدَ بأنك كنتَ عندهُ في الساعة التاسعة والنصف ! » .

وفي الحال ذهب دارتانيان إلى منزل السيد دي تريفيل . واستغلّ لحظةً تركه فيها دي تريفيل فأخّرَ ساعةَ الحائط ثلاثةَ أرباع الساعة . ثم قال للسيد دي تريفيل عندما عاد

وعشرين دقيقة . وراح دارتانيان يقصّ عليه قصةً طويلة ، ثم استأذنَ وخرجَ ، بينما توجّهَ السيد دي تريفيل إلى البَهْو . ولكن دارتانيان ما لبثَ أن عاد لأنّهُ نسيَ عصاه ، وهناك أصلحَ الساعة بسرعةٍ ومضى .

٨ . المكيدة

اتخذ دارتانيان ، لدى خروجِهِ من دار السيد دي تريفيل ، أطولَ طريقٍ للعودة إلى داره . ولما قطعَ شارع « كاسيت» وأطلّ على منزل صديقه أراميس رأى امرأةً ملتفّةً بمعطف ، تفتّشُ عن منزلٍ معيّنٍ . فأخذ يراقبُها . ولكَمْ كان دهشُهُ عظيماً عندما رآها تتوقف أمام منزلِ صديقه وتدقّ على النافذة . بعد قليل شُقّتِ النافذةُ وظهرت فيها امرأة أخرى . وأخرجتِ المرأةُ ، التي تقفُ في الشارع ، منديلاً أبيض من جيبها وأشارتْ إلى زاويته وهي تتحدّثُ إلى المرأة الأخرى. وأخرجتْ هذه بدورها منديلاً آخر ناولتْه إلى المرأة الزائرة وأخذت منديلها . ثم أُغلقَتِ النافذةُ ، ومضت المرأةُ مارّةً على قيد خطواتٍ من دارتانيان الذي عرفَ فيها [illegible] لما رأت مدام بوناسيو رجلاً في وجهها

قُصَّ الشريطُ الذي كان يمسكهُما بمقصٍّ ! .. إنَّ هذا لمن عَمَلِ الكردينال ! .. متى ستقامُ الحفلة ؟ » .

— « يومَ الاثنين القادم ! » .

— « إذن ما زال أمامنا فسحةٌ من الوقت ! » .

وفتحَ بابَ المَعْبَد وصاح : « باتريس ! » .

فلما جاء الخادمُ طلب منه أن يَدْعُوَ إليه صائغَهُ وسكرتيره. ثم جلس يكتب. وأقبلَ السكرتير، فسلّمه أوامرَ طلبَ منه تنفيذَها في الحال. وقال لدارتانيان: « إذا كانتِ الماستان لم تُرسَلا بعدُ إلى فرنسا فلن تصلا إليها إلا بعدَ وصولك. فقد أمَرْتُ بوقفِ جميعِ السفنِ المسافرةِ إلى فرنسا ! » .

وحضر الجواهريّ ، فأراه الدوقُ العلبةَ قائلاً : « سيد أوريلي! أترى إلى هذه الحلى الماسيّة؟ قُلْ كم تساوي القطعة منها! ». فراح يتأملُ الطريقة الرائعة التي رُكِّبَتْ بها الأحجارُ الكريمة ، ثم قال : « كلّ قطعةٍ تساوي ألفاً وخمسمئة بستول ، يا سيدي اللورد ! » .

— « كم يوماً تحتاج لصُنْعِ اثنتَيْن منها؟ سأدفعُ لك في القطعةِ ثلاثةَ آلاف بستول، على أن تسلّمني القطعتين بعد غد ! ».

— « ليكنْ » ! .

— « ليس هذا كلّ شيء ، يا سيد أوريلي ! .. إنني أريدُ أن يتمّ ذلك في هذا القصر ! » .

وهكذا نُقِلَتْ جميعُ الأدوات التي يحتاجُ إليها الجواهريّ. وحُوّلَتْ إحدى الغُرَف إلى مَشْغَلٍ بكل معنى الكلمة !

وفي الوقت المحدّد سلّمَ الجواهريّ القطعتَيْن إلى الدّوق ، وكانتا من الاتقان بحيث لم يستطِعْ أن يميّز بينهما وبين القِطَعِ القديمة . فدعا إليه دارتانيان وقالَ له : « هاك ما جئتَ من أجله » .

ثم أضاف قائلاً : « خُذْ هذه الرسالة ، واذهَبْ إلى المرفأ ، وهناك اسألْ عن قبطان السفينةِ « ساوَنْد » ، فسلّمْها اليه ، وسيوصِلك إلى سان فاليري.. إلى مرفأ صغير لا يَقْصِده سوى الصيادين .. ستجدُ هناكَ نُزُلاً متواضعاً فتقول لصاحبه : « فوروارد (إلى الأمام) . فيعطيك صاحب النُزُل فَرَساً ويَدُلّكَ على الطريق . وفي طريقك ستمرّ على أربعِ محَطات في كلّ محطّة حصان .. أعطِ عنوانكَ في باريس، وسَتُرسَلُ إليك هذه الخيولُ التي ستُعْجِبك حتماً ، فخُذْ منها حصاناً وقَدّمِ الثلاثةَ الباقيةَ لأصدقائكَ الثلاثة ! » .

• • •

غداةَ وصولِ دارتانيان إلى باريس ، لم يكن للناس حديثٌ سوى حديثِ الاحتفالِ الكبير ، الذي سيُقيمُه رؤساءُ البلديات والعُمَد لصاحبيْ الجلالة . وفي منتصَفِ الليلِ سُمِعَتِ الهُتافاتُ للملك الذي كان موكبُه متّجهاً من قصر اللوفر إلى قصر البلدية ، في شوارعَ مُشعّةٍ

بالأضواء . وبعد نصف ساعة وصل موكب الملكة ...

ولما دخلت الملكة إلى الصالة لوحظ أن على وجهها كآبةً كالتي كانت على وجه الملك . وفي تلك اللحظة كشفت ستارةٌ عن منصّة صغيرة ، وظهر الوجه الأصفر للكردينال الذي كان في زيّ فارس اسباني . وتركّزت نظراته على عينيَ الملكة ، وطافت بشفتيه ابتسامةٌ رهيبةٌ ، إذ لم تكن الملكة متزيّنةً بالحليّ الماسيّة .

وراحت الملكة تردّ على تحيّات المدعوّين والمدعوّات . ثم دخل الملك والكردينال . وكان الكردينال يتحدّث بصوت منخفض إلى الملك... واتجه الملك نحو الملكة . ولما أصبح أمامها قال لها بصوت متهدّج : «سيدتي ! لماذا لم تضعي الحلي الماسية ، مع انك تعرفين أنني أحبّ أن أراها عليك ؟ » .

— « في إمكاني ، يا مولايَ ، أن أرسل من يأتي بها من اللوفر ! » .

— « إفعلي فالرقص يبتدىء بعد ساعة ! » .

وتوجّهت الملكة إلى مقصورتها وتوجّه الملك بدوره إلى المقصورة المُعدّة له . وما لبث أن جاءه الكردينال وناوله عُلبةً ،فتحها فإذا فيها قطعتان من الحُليّ الماسيّة التي أهداها إلى الملكة ،فقال الملك : « ما معنى هذا ؟ » .

— « لا شيء ! ولكن إذا وضعت الملكة الحليّ فعُدّ قطعها ، ثم سل جلالتها من عساه سرق منها هاتين

القطعتين ! » .

ونظر الملك إلى الكردينال يستوضحه الأمر . ولكنه لم يجد الوقت لإلقاء أيّ سؤال عليه . ذلك أن صيحة استحسان انطلقت ، في تلك اللحظة من جميع الأفواه ، عندما بدت الملكة وهي تعتمر قبعةً ذات ريش ، وترتدي معطفاً ذا لون رماديّ لؤلؤيّ وأزرار من الماس ، تحته تنّورةٌ من الأطلس الأزرق وعلى كتفها اليسرى تبرق مجموعة الحُليّ الماسيّة . وقد جُمعت بشريط رائع من نفس لون الريش والتنّورة . فاهتزّ الملك فرحاً وإعجاباً ، كما اهتزّ الكردينال .. ولكن من الغيظ والغضب .

غير أن المسافة التي كانت تفصل بين الملكة وبين الملك والكردينال كانت تحول دون تمكن هذين الأخيرين من عدّ قطع الحُليّ : أكانت عشراً أم اثنتي عشرة .

وصدحت الموسيقى وبدأ الرقص . وكان جبين الكردينال يرفض عرقاً بارداً. فما إن انتهت الرقصة حتى راح كلّ واحد يوصل السيّدة التي راقصها إلى مكانها . وانتهز الملك هذه الفرصة فاقترب من الملكة وقال لها : «أشكرك على الاهتمام الذي أبديته لتنفيذ رغبتي ! ولكني أعتقد أن المجموعة ناقصةٌ قطعتين ، وهأنذا أحملهما إليك ! » .

فصاحت الملكة وهي تتصنّع الدهش : « وكيف ذاك ، يا مولاي ؟ ! أتعطيني قطعتين جديدتين ؟!

ستكونُ المجموعةُ إذن أربعَ عشرةَ قطعة ! » .

فعدّ الملكُ المجموعةَ على كتفِ الملكة فاذا هي اثنتا عشرةَ قطعةً . فنادى الكردينالَ وقالَ له مُغضَباً : « هيهِ ، يا سيدي الكردينال ! ما معنى كلّ ذلك ؟ » .

– « معناهُ ، يا مولاي ، أنني كنتُ أريدُ أن أقدّمَ هاتينِ القطعتين لجلالةِ الملكة ، فلجأتُ إلى هذه الوسيلة ! » .

قالت الملكةُ وهي تبتسمُ ابتسامةً ذاتَ مغزى : « وهذا ما يزيدُ في تقديري لهديتّك ، يا صاحب النيافة ، إذْ لا بدّ أن قطعتَيْكَ قد كلّفتاك أكثرَ مما كلّفتْ كلّ القِطعِ جلالةَ الملك ! » . ثم سلّمت الملكةُ على الملك والكردينال وتوجّهَتْ إلى الغرفة المُعَدّةِ لتبديلِ ملابسِها .

ولمّا مضت الملكةُ استعدّ دارتانيان لمغادرةِ المكان . فاذا بيد لطيفة تلمسُ كتِفَهُ برِفْق . فالتفت ، فعرَفَ رَغمَ القِناع ، أنّ تلكَ المرأةَ كانت مدام بوناسيو ، وكانت تُشيرُ اليه أن يتبعها . أدخلَتْهُ في حُجرة مظلمة يأتيها شيءٌ من الضَّوء من خلال ستائر تغطي باباً مسقوفاً . وسمعَ بضعَ نساءٍ يتحدثْنَ ويلفظْنَ كلمةَ «جلالتك » . فعلم أن الغرفةَ متصلةٌ بغرفة الملكة . وما هي سوى لحظاتٍ حتى امتدَّتْ من بين الستائر يدٌ ناعمة ، فركع وقبّلَ تلكَ اليدَ التي وضعَتْ في كفّهِ خاتماً قبل أن تنسحب . ثم غرِقَت الحجرةُ في الظلام .

عاد دارتانيان جرياً إلى منزلِهِ فوجدَ رسالةً من مدام

بوناسيو تحدّدُ له فيها موعِداً للّقاء « بسان كلو » في الساعةِ العاشرةِ من المساء . وفي الساعةِ السابعةِ نهضَ من النوم وقال لخادمهِ إنه سيتغيّبُ طولَ النهار ولكنّ عليه أن يكونَ في انتظارهِ ، معَ جوادَيْنِ ، في الساعةِ السابعةِ . قال بلانشيه : « ولكنْ لا يوجدُ سوى جوادٍ واحد ! »

– « سيكون هناك أربعةُ جياد ! » .

وتوجّه إلى دار السيد دي تريفيل ، الذي سأله عن رفاقه ، فأخبرهُ بما حدثَ لهم . وقد نصحَهُ السيد دي تريفيل أن يتغيّبَ عن باريسَ لأن الكردينال لا ينسى الإساءة .

ومضى إلى دورِ أصدقائه فلم يجدْ أحداً منهم ، كما أنّ خدمَهُمْ أيضاً كانوا غائبين . ومرّ على إسطبلات الحَرَسِ فوجدَ أن ثلاثةً من الخيولِ قد وصلت .

١٥ . البيت الصغير

في التاسعة مساءً توجّهَ دارتانيان إلى دار الحرس ، فوجدَ بلانشيه في انتظاره ، ووجدَ أن الحصانَ الرابعَ قد وصل . فتسلّح بمُسدّسَيْنِ إلى جانب سيفه ، وسارَ وخادمه ، الذي كان يحملُ أيضاً مُسدّساً وبُندقيةً صغيرة .

ولما وصلا إلى « بولونيا » ترجّلَ وتركَ فرسَهُ مع الخادم وسارَ إلى سان كلو . وتركَ الشارعَ الرئيسيّ ودارَ حولَ القصر ؛ وما لبثَ أن رأى المنزلَ الصغيرَ الذي حدّدَتْهُ

له مدام بوناسيو في الرسالة. كان المنزلُ في بقعةٍ منعزلة ، وكان يقومُ عند زاوية سورٍ طويلٍ يتّصلُ بسياجٍ يحيطُ ببستان فيه كوخ . وكانتْ جميعُ النوافذِ مغلقةً ما عدا واحدةً .

دقّتْ ساعةُ القصرِ العاشرةَ ، ثم الحاديةَ عشرةَ فلم يحْضُرْ أحد . هناك ساورَ القلقُ دارتانيان ، فتسلّقَ شجرةً علّهُ يكشفُ ما في الحجرة . وما إن انكشف له داخلُ الحجرة حتى شاهدَ آثارَ معركة ، إذ رأى مائدةً تبعْثَرَ ما عليها وتحطّم ، بل رأى آثارَ دماء .

عندها بلغَ بهِ القلقُ على حياة مدام بوناسيو أقصاه .

فتسلّقَ السياجَ ، ودقّ على باب الكوخ . فخرج له رجلٌ عجوز رفضَ أن يتكلّمَ لأنه خائف . ولكنّ دارتانيان أقنعَهُ بالتحدّث ، فأخبرَهُ بأن ثلاثةَ فرسانٍ قد جاؤوا في التاسعةِ مساءً ومعهم كهلٌ زريّ الشكل . وقد أخذوا من عنده سلّماً ارتقى عليها الكهلُ ، ثم قال لهم : « إنها هي نفسُها ! » وقد أخرجوا بعد ذلك امرأةً من الداخلِ وساقوها بمنتهى القسوة .

* *

في اليومِ التالي روى دارتانيان هذه الأحداثَ للسيّد دي تريفيل ، ثم سألَهُ عما يجبُ عملُهُ ، فأجابه قائلاً : « عليك أن تغادرَ باريسَ في الحال ، وأنا سأقابلُ الملكةَ وأخبرُها بما حدَثَ للمرأةِ المسكينة » .

وعاد دارتانيان إلى منزلِهِ ليُجهّزَ نفسَهُ من أجل السفر . فوجدَ بلانشيه في انتظارِهِ وهو في غايةِ الخوف : لقد جاء السيد دي كافوا يسأل عن دارتانيان ! فقال هذا وقد أثرت فيه المفاجأة : « قائدُ حرسِ الكردينال ؟ ! .. لا بُدّ أنه جاء لاعتقالي ! » .

— « هذا ما خطَرَ لي ، ولكنّه سألني أن أبلغَكَ أن الكردينال يريدُ أن يراك ، وأضاف أن سيادتَهُ مسرورٌ منك ، وقد تكون سعادتُك متوقّفةً على هذه المقابلة ! غير أني قلتُ له إنك سافرتَ إلى شامبانيا مساء أمس ! » .

— « أنت إنسانٌ رائعٌ .. ثم إنكَ لم تخطىء ، فبعد رُبْعِ ساعةٍ سنغادرُ باريس ! » .

وقبل أن يتركَ العاصمةَ مرّ على رفاقِهِ ليرى إنْ كان أحدٌ منهم قد عاد . ولكنّه لم يجدْ سوى خطابٍ معطّرٍ ، ينتظرُ أراميس ، فأخذهُ وبدأ رحلته .

قصدَ أولاً إلى شانتيي ، ونزلَ في نفس الفندقِ الذي توقّفَ فيه هو ورفاقُه في المرةِ الأولى . وهناك وجد بورتوس يلازمُ الفراشَ لأنه أصيبَ في المعركة . كما وجدَ أنه خسرَ المالَ الذي كان معه ، إذ لعبَ مع نبيلٍ نزلَ في الفندق . فوفّى عنهُ المتأخّرَ من أجرِ الفندق وسلّمهُ حصانَهُ ، ومضى مواصلاً رحلتَهُ ، على أن يعودَ إليه ويأخذَهُ معهُ إذا كان لا يزال مكانه .

في « كريفكور » توجّه إلى الحانة التي ترك فيها أراميس ووجده في صحبة رجلين من رجال الدين ، يبحث معهما بعض المسائل المتعلقة باللاهوت . ولم يستقبله أراميس بالحرارة التي كان يتوقعها ، ذلك أنه بدا وكأنه عازف عن الدنيا ، لأنه قرر أن يترهب . ولكن دارتانيان أعطاه الخطاب المعطر فغيّر رأيه ، وراح يرقص هو وصديقه .

١٦ . زوجة أتوس

بقي على دارتانيان أن يعثر على أتوس . فبات ليلته مع أراميس، ثم نهض في صباح اليوم التالي ليتوجه إلى أميان .

في حوالى الساعة الحادية عشرة ظهرت المدينة لعينيه ، وبعد نصف ساعة كان أمام الفندق اللعين . وحين خف الفندقي لتحيته قال له : « هل تذكرني ؟ »

— « لم يحصل لي شرف رؤيتك قبل الآن ! » .

— « سأعيد إليك الذاكرة : ماذا فعلتم بذلك النبيل الذي تجرأت على اتهامه، منذ خمسة عشر يوماً، بتزييف العملة ؟ ».

فاصفرّ الرجل وقال : « آه ، لا تذكّرني بتلك الحادثة فلقد دفعت ثمنها غالياً ! » .

— « قلت لك : أين هذا النبيل ؟ » .

— « أرجو أن توسع صدرك وتستمع إليّ ! » .

وراح الفندقي يروي له كيف أن ستة من رجال الحكومة

جاءوا إليه وأجبروه على ما فعل . وأخبره بأنهم هم الذين قاموا بتمثيل دور السوّاس، وأدموا رأس الخادم . ولكن أتوس صرع منهم اثنين كما قتل أحد خدم الفندق . وفي تراجعه سقط في سلّم القبو ، وكان بابه مفتوحاً ، فدخل إليه وأقفل بابه وتمترس هناك . وحتى بعد أن غادر رجال الحكومة الفندق لم يقبل بالخروج إلا إذا أعيد إليه خادمه غريمو مسلحاً . فلما جاء الخادم أدخله وعاد إلى إقفال الباب والتحصن . ومنذ ذلك الوقت وهو يأكل ويشرب هو وخادمه ، لأن جميع مؤن الفندق وخموره موجودة في القبو .

عندها نزل دارتانيان ونادى رفيقه . فلما عرف صوته فتح الباب الذي كان قد وضع خلفه عدداً من البراميل والأشياء الثقيلة. وعندما خرج كان يترنح من السكر .

وجلس الصديقان يأكلان ويشربان ويتحدثان عن نفسيهما وعن صديقتيهما . وقد أفضى دارتانيان إلى صاحبه بما يستشعره من جراء ما حدث للمرأة التي أحبها ، وهي مدام بوناسيو . قال أتوس وقد التمعت عيناه : « إن ما تعانيه شيء مضحك !.. ماذا تقول لو حدثتك بقصة الحب التي أعرفها ؟ » .

— « حدّثني ، أرجوك ! » .

فكرع كأسه ثم ملأها مرة أخرى ، وراح يروي

قصة كونت من مقاطعته ، أي مقاطعة «بري» ، أحبَّ وهو في الخامسةِ والعشرينَ فتاةً بالغةَ الروعة والذكاء ، في السادسةَ عشرةَ من عُمرها . جاءت الفتاةُ مع أخيها الكاهن ، وسكنا في المنطقة فهام بها الكونت. وسرْعانَ ما طلبَ يدَها وتزوجَها ، دون أن يسألَ عن أصلها ، لأنَّ جمالها ووجودَها مع ذلك الأخ الصالحِ جعلاه يَضرب صَفْحاً عن هذا السؤال . وبينما كان الزوجان في الصيْد ذات يوم ، سقطت المرأةُ الشابّةُ عن الفرَسِ وأغميَ عليها . ولكي يساعدَها على التنفّسِ شقَّ ثوبها بخنجرِه عند العُنق ، فانكشفَتْ كتِفُها ، فرأى عليها زهرةَ زَنبق : لقد كانت موصومةً بوَصْمةِ العار . عندها عزَمَ على قتلِها ، فشنقَها في شجرة هناك » .

فصاح دارتانيان : « هذه جريمة قتل ! » .

فأجاب أتوس وقد اكتسى وجهه بصُفرة كصفرةِ الموت : « أجل جريمة قتل ! .. لقد شفاني هذا من النساء الجميلات الشاعريات المُتيّمات ! .. أرجو أن يشفيَكَ أنتَ أيضاً ! .. لِنشْرَبَ ! » .

— « وهل ماتت ؟ » .

— « يا للشيطان ! إشْرَبْ ! » .

— « وأخوها ؟ » .

— « سألتُ عنه، فقيلَ لي إنه غادرَ الدير ورحل ! » .

١٧ . العودة

ظل دارتانيان مُشتّتَ الفكرِ من تلك القصةِ « المبتورةِ » التي قصّها عليه أتوس . ولهذا قصَدَ إلى حُجرته في اليوم التالي لاستكمال القصة . ولكنه وَجَدَهُ قد أفاقَ من السكرِ وعاد إلى سابق عهدِه من التكتّم والحذَر . قال أتوس : « لقد كنتُ أمسِ لا أعي من السكر ، يا عزيزي دارتانيان ! .. وأراهنُ أنني قلت أشياء عجيبة ... وبالمناسبة ، أريد أن أشكرَك على الحصان ! » .

— « كلا ! إنك لم تقلْ شيئاً غير عاديّ ! » .

— « هل أعجبك ؟ » .

— « أجل ! ولكنه ليس من الخيول التي تتحمّل التعب ! » .

— « أنت مخطىء ، فلقد قطعَ بي عشرةَ فراسخَ في أقلّ من ساعة ونصف ومن غير أن يتعب » .

— « هكذا ؟ ! .. إنك تجعلني أندم عليه ! » .

— « تندم ؟ ! » .

— « أجل ! فلقد فقَدتُهُ ! » .

— « كيف ؟ » .

— « في هذا الصباح نهضتُ في السادسة ، فنزَلْتُ إلى البَهْو ، فرأيت نبيلاً إنكليزياً يساوم سِمسارَ خيولٍ على حصان .. فقلت له إن لديّ حصاناً للبيع . قال: بكم ؟ قلتُ :

سألعب معك عليه ! قال : بأيّ لعبة ؟ قلت : بالزّهر ! هكذا خسرتُه ! ولكني استعدْتُ السّرجَ الثمين ! » .

فاستاء دارتانيان. ولكنْ لم يكن هذا كلَّ شيء ، بل إن أتوس لعبَ على حصان دارتانيان وخسِرَهُ ، وخسِرَ كذلك السّرجَيْن. ثم لعِبَ على الخاتمِ الثمينِ الذي رآه في يدِ دارتانيان ، وخسِرَه . بعد ذلك لعب على « غريمو » ، خادمِه ، فاستعاد الخاتمَ كما استعاد السّرجَيْنِ دون الحصانين . ولما كان السّرجان لا يفيدانِ دونَ حصانينِ فقد اقترح على دارتانيان أن يلعَبَ مع النبيلِ الإنكليزي الذي ما زال في الفندق ، لاستِرداد حصانه ، فلعِبَ دارتانيان بالسّرجَيْن مقابلَ الحصان أو مئة بستول . فربح. ولكن أتوس أشارَ عليه أن يأخذ المئةَ بستولٍ لأنهما مُفلسان. وهكذا ركبَ الفارسان بَغْلَيْ الخادمَيْن، وسار الخادمانِ وراءهما يحملانِ السّرجَيْنِ الثمينين.

ولما وصلا إلى « كريفكور » رأيا ، من بعيد ، أراميس يتكىءُ على النافذة، والكآبةُ باديةٌ عليه . ولما اقتربا صاحا : « ما بك يا أراميس؟ » . فقال : « كنت أفكّرُ في سُخفِ هذه الحياة ... لقد ضاع مني الحصان الانكليزي ! » .

كان أراميس قد باع الحصانَ بستّين ليرة ذهبية وأبقى السّرْج . وبعد استراحةِ ساعةٍ سار الأصدقاء الثلاثةُ للقاءِ بورتوس . فوجدوه في صحة جيدة . وكان يجلسُ أمام مائدةٍ عامرةٍ تكفي أربعةَ أشخاص . قال أراميس : « هذا الطعامُ

ليس لك وَحدَك ؟! » فأجاب بورتوس : « كنت أنتظرُ بعضَ النبلاء في هذه الناحية ، وقد أرسلوا يعتذرون ؛ وأنتم خيرُ من يَحِلّ محلّهم ! » .

وأثناء الأكلِ أخبرَهُمْ بأن الوليمةَ من ثمن الحصان ؛ فقد باعَهُ بثمانينَ ذهبيّة . فانفجرَ الأصدقاءُ بالضحك ، وقال أتوس : « على أي حال كان بورتوس أكثرنا توفيقاً ! » .

وعاد الجميعُ إلى باريس وليس معهم سوى السُّرُج .

ووجد دارتانيان، لدى عودتِهِ ، خطاباً من دي تريفيل يُخبره فيه بأن الملكَ وافق على انضمامِهِ إلى سلاح الفرسان. لقد كان فرحُهُ عظيماً بالطبع ،لأن هذا كان أحدَ هدفَيْن يرجو أن يتحقّقا. أما الهدفُ الثاني فهو العثورُ على مدام بوناسيو .

وفي الحال ذهبَ إلى أصدقائه ، الذين تركَهُمْ منذ نصفِ ساعة . فوجدهم مُغْتمّينَ إلى حدّ بعيد . ذلك أن السيد دي تريفيل أبلغهم أن الملك قرّر أن يبدأ حصار مدينة لاروشيل في أول نيسان ، وأن عليهم أن يتجهّزوا لذلك خلال خمسةَ عشَرَ يوماً . كانوا جالسين يَضْربونَ أخماساً في أسداس . لأنّ التجهيزات تكلّفُ الواحدَ ألفاً وخمسمئة ليرة، بمعنى أن الأربعةَ في حاجة إلى ستة آلاف ليرة . أما أتوس فقد أقسمَ ألا يخطوَ خطوةً واحدةً ليفتّشَ عن مال . فاذا انقضتِ المدّة ولم يجدّ شيءٌ ، فسيقاتلُ نفراً من حرَسِ الكردينال أو من الإنكليز ، ولا بُدّ أن يقتلَه

أحدهم ، فيقال إنه مات من أجل الملك . وأما الثلاثة الباقون فصاروا يخرجون كل يوم للتفتيش ، ثم يعودون بخيبة الأمل .

ويبدو أن بورتوس قد فكر في حل ، فقد وجده دارتانيان يسير في اتجاه الكنيسة ، فتبعه . وفي الكنيسة رأيا امرأتين . أما الأولى فكانت زوجة وكيل قضايا ؛ وقد كان بورتوس على علاقة بها قبل أن يصاب في الرحلة الأخيرة . وقد اتفقت معه على أن يأتيها في اليوم التالي على أساس أنه ابن عمتها ، وأنه آت من « نوايون » ببيكارديا ، لأن لديه عدة دعاوى في باريس . وهكذا رأى دارتانيان صديقه يخرج مع تلك السيدة وفي عينيه بريق الأمل .

وأما السيدة الأخرى فقد كانت من الطبقة الرفيعة ، إذ كان معها ولد زنجي يحمل لها وسادة كانت تركع عليها أثناء الصلاة ، ومعها تابعة أخرى . كانت بارعة الجمال ، وما إن نظر إليها دارتانيان حتى عرف فيها تلك السيدة التي رآها في « مونغ » و « كاليه » و « دوفر » ، والتي كان عدوه ، رجل مونغ ، يدعوها « ماي ليدي » .

١٨ . السيدة الانكليزية

وتبع دارتانيان « ماي ليدي » ، عند خروجها من الكنيسة ، دون أن تشعر به . وقد سمعها تقول لحوذي العربة ، التي كانت في انتظارها ، أن يتوجه إلى سان جرمان . ولم يكن في استطاعة دارتانيان أن يتبعها سيراً على قدميه . فتوجه

إلى منزل أتوس . وفي الطريق صادف بلانشيه ، فأمره بأن يسرع إلى اسطبلات السيد دي تريفيل ويسرج جوادين ثم يلحق به عند أتوس .

وعندما جاء الجوادان ركب هو وخادمه وتوجها إلى سان جرمان . وفي شارع خال من المارة ، وأمام بيت ، رأيا وجهاً سبق أن عرفه الاثنان : ذلك هو لوبان ، خادم الكونت واردس . فأرسل دارتانيان بلانشيه ليتحدث اليه ويعرف ماذا حل بسيده . أما هو فقد دار حول المنزل بالحصانين ، ووقف يتسمع من وراء سياج .

وبينا هو كذلك إذا بالعربة تصل وتقف قبالته . فانحنى على رقبة الحصان . وأخرجت المرأة رأسها الأشقر الجميل من العربة وأصدرت أمراً إلى خادمتها ، وهي فتاة حسناء تناهز العشرين من العمر . فاتجهت الخادمة نحو المكان الذي كان يقف فيه لوبان . وكان هذا قد نودي من الداخل فمضى ، وبقي بلانشيه . قالت الفتاة لبلانشيه ، وهي تحسبه لوبان: «خذ هذه لسيدك!» وأعطته رقعة ومضت .

وأعطى بلانشيه الرقعة إلى دارتانيان الذي سأله عن الكونت واردس فأخبره بأنه لا يزال في السرير من أثر الجراح . وقرأ في الرقعة هذه الكلمات : « إن شخصاً مهتماً بك يريد أن يعرف متى تسمح لك صحتك بالقيام بنزهة في الغابة . غداً سينتظر ردك خادم أسود في دار « معسكر الحوخ الذهبي » .. » .

وعادَ دارتانيان ينطلق وخادمُه وراء العربة . ولما أدركاها كانت واقفةً وراء الشارع الرئيسيّ وكان أمامها فارسٌ يرتدي ملابسَ فخمة . وكان يتحدث والسيدة باللغة الانكليزية ؛ وكانتِ السيدةُ تتحدّث بغضب ، فراح الفارس يُقَهْقِهُ مما زاد في غضب السيدة . فرأى دارتانيان أن الفرصةَ مواتية ، فتقدّم من الباب الآخرِ وانحنى أمامَ السيدة قائلاً : « أتسمحَ السيدةُ بأن أقدّم لها خدَماتي ؟.. يُخيّل إليّ أن هذا الفارسَ قد أثارها » .

— « يسرّني ، يا سيدي ، أن أكون في حمايتك لو لم يكن هذا الفارس هو أخي ! » .

قال الفارس : « ماذا يريد هذا الأحمق ؟ ! » .

وتوتّرَ الجو . وبدلاً من أن تتدخلَ السيدة وتُهدّئ الفارسين ، أمرت حوذيَّها بأن ينطلق .

وعرف دارتانيان في الرجل ذلك الانكليزيّ الذي كسبَ حصانَهُ في أميان وكاد يكسب خاتمَهُ في اللّعِب ، وهكذا طلبَهُ للمبارزة ، فوافق النبيلُ الانكليزي على أن يصطحبَ كلٌّ منهما رفاقَهُ ،وقدّمَ نفسه باسْمِ لورد وِنتر ، بارون شيفيلد .

١٩ . انكليز وفرنسيون

في الموْعدِ المحدّدِ ذهبَ الأصدقاءُ الأربعةُ إلى المبارزة ، ووراءهم خدَمُهُم الذين وقفوا كحرّاسٍ حولَ الساحة

خلف اللوكسمبورغ . ولم تَلْبَثْ أن تقدّمتْ من المكانِ جماعةٌ من الفرسان ، في صمْتٍ وهدوء .

وعلى عادةِ الانكليز قدّمَ الرّجالُ القادمونَ أنفسَهم ، وكانوا جميعاً من أصحابِ الألقابِ الرفيعة . ولما سمعوا أسماء الفرسانِ الغريبةَ داخلَهُمْ شيء من القلق . فقال لورد ونتر : « هذه الأسماء إن هي إلا أسماء رعاة ، وهي مستعارة ونحن نريد الأسماء الحقيقية حتى ننازلكم ! » .

فأجاب أتوس قائلاً : « أنت على حق ، ولكنك لعبتَ معنا قبلَ الآن وكسبْتَ منّا فَرَسَيْنا ! » .

— « هذا صحيح .. ولكني ، في المرةِ السابقة ، لم أكن أجازفُ إلا بمالي ، أما الآن فنحن نجازفُ بحياتنا ! » .

فتقدم أتوس من الفارس الذي سينازلُهُ وأسَرَّ إليه باسْمِهِ الحقيقيّ ، ثم سأله : « ألا يكفيك هذا ؟ » .

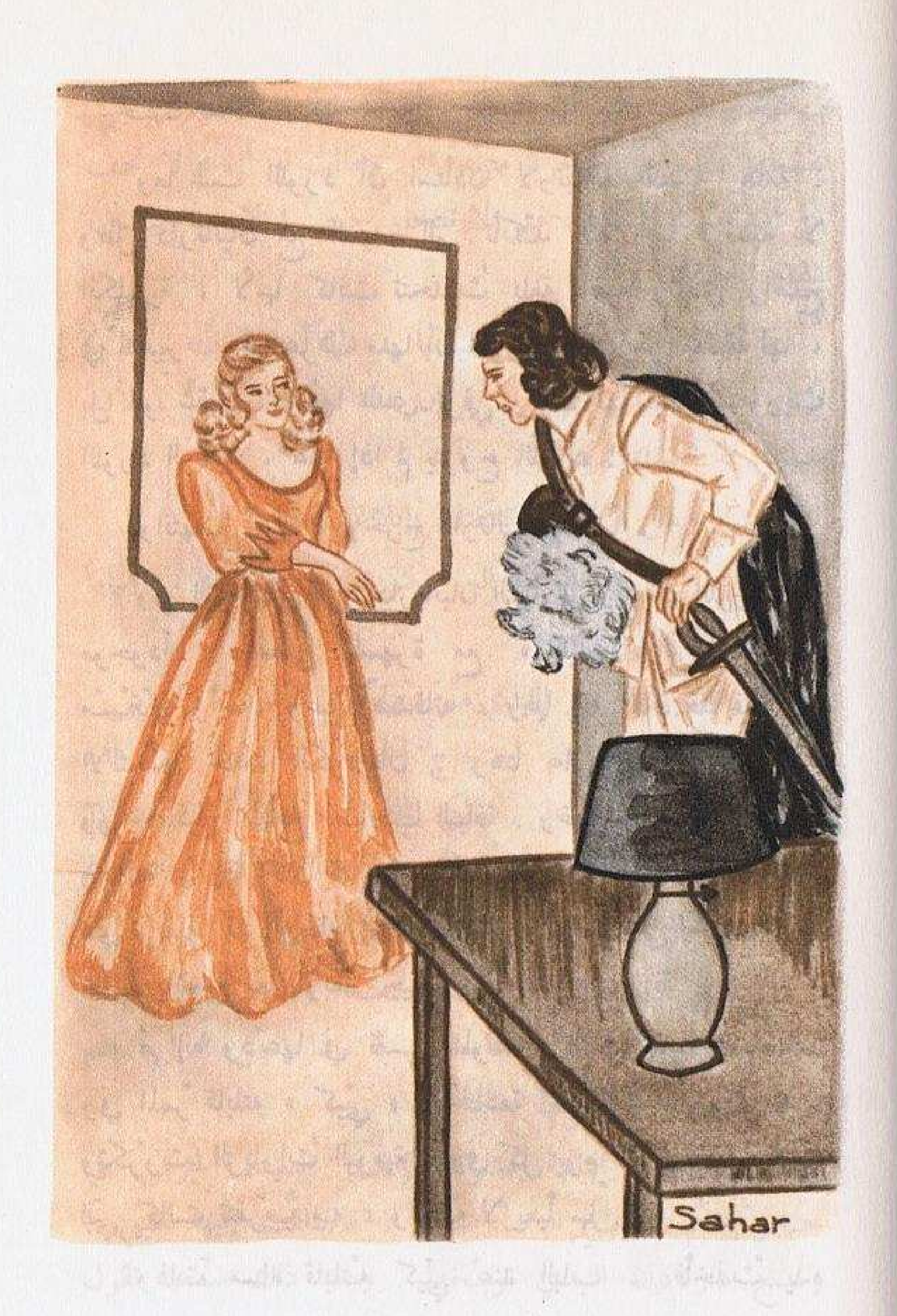
أجاب الانكليزي وهو ينحني : « بلى ! » .

وفعلَ كلٌّ من الرفاق فعلَهُ . ثم أضاف أتوس متوجّهاً نحو خصمه: «كان من الأفضل لك ألا تسأل عن اسمي! » .

— « ولمَ ذلك ؟ » .

— « لأنه من المعروف أنني ميْت ، ولهذا فأنا مُضطرّ إلى قتلكَ حتى لا يُفتضح أمري ! » .

فنظر إليه الانكليزيّ ظاناً أنه يمزح . ولكن أتوس كان يتحدّثُ بمنتهى الجِدّ . وبالفعل ، ما إن بدأتِ المعركة ،



درتنيان وماي ليدي

حتى وَجّهَ إليه ضربةً اخترقتْ قلبه . وأصاب بورتوس خصمَهُ في ساقهِ ، فوقعَ أرضاً ، ثم سلّمَ سيفه . أما خصمُ أراميس ، فلما رأى شدّتَهُ انطلق هارباً ، وصياحُ الخدمِ الساخرُ يلاحقُهُ . وأما دارتانيان فقد اتخذ موقفَ الدفاع ، حتى أجهدَ البارون ، وعندها أطارَ له سيفَهُ من يده ، فتراجع البارون خُطوتين إلى الوراء ، فتعثّرتْ قدَمُهُ وانقلبَ على ظهره . هنالك قفزَ دارتانيان وقال لخصمه وهو يضعُ رأسَ السيف على عنقه : « أنت الآنَ تحت رحمتي ، وفي استطاعتي أن أقتلك ، ولكنني أهَبُكَ الحياةَ حباً بأختك ! » .

لقد كان دارتانيان في قمّة الفرح ، لأنه تمكّنَ من تنفيذ الخطّة التي وضعَها بدقّة متناهية . قال اللورد ونتر : « في هذا المساء بالذات سأقدّمك ، يا صديقي الشابّ ، إلى أختي ليدي كلاريك ، التي تتمتّع بمكانة هامّة في البلاط ، وأعتقدُ أن كلمةً منها قد تعودُ عليكَ بفائدةٍ كبيرة ! » ثم أعطاه العنوان .

وجاء اللورد، مساءً، في عربة فخمة ليأخذَ دارتانيان . وقدّمه إلى أخته قائلاً : « هذا هو الشابّ النبيل الذي كانت حياتي بين يديه ، فلم يشأ أن يستغلّ تفوّقَهُ ، فاشكريه يا سيدتي ، إن كنت تحبّينني ! » .

فعبست « ماي ليدي » ، ثم ابتسمت ابتسامةً غريبة ،

ورحّبت به .

وما لبث اللورد أن استأذنَ لارتباطه بقضية هامة . وظل دارتانيان مع السيدة التي تأكّدَ لَهُ أنها فرنسية لا انكليزية ، لأنها كانت تتحدّثُ بلغة نقية وتأنّق واضح في التعبير . وقد عرف منها أن اللورد ونتر ليس شقيقاً لها ، بل هو شقيقُ زوجها الذي توفي وترك لها ابناً هو وريث اللورد الوحيد ، هذا إذا لم يتزوج اللورد .

وانتهت السهرةُ وخرج دارتانيان سعيداً .

وفي اليوم التالي كرر دارتانيان الزيارة. ولم يكن اللورد ونتر موجوداً ، فقضى السهرة مع « الليدي » التي سألته عن مَسْقَط رأسه، وعن أصدقائه ، وعما إذا كان قد فكر في الالتحاق بخدمة الكردينال . وهنا عاودَتْه شكوكُهُ ، وراح يكيلُ المديحَ لصاحب النيافة . وغيّرتْ مجرى الحديث وسألته عما إذا كان قد زار انكلترا . فأجاب بأن السيد دي تريفيل قد أرسله إلى هناك لشراء عددٍ من الخيول. وقد

بِرِقّة وطلبت اليه أن يتبعها . ثم أدخلته إلى حُجرتها التي يفصلها بابٌ عن حجرة سيّدتها . وقالت له : « لا تخفْ من أن تسمعنا السيدة ، فهي لا تدخلُ حجرتها إلا عند منتصف الليل ! » .

وسألته إن كان يحبّ سيدتها ، فلما أجابَ بأنه يُحبّها فوق حدّ التصور قالت : « إن هذا مؤسفٌ حقاً ، لأنّ سيدتي لا تحبّك ! » .

— « وهل هي التي كلّفتك بإبلاغي هذا ؟ » .

— « كلا ! بل أنا التي فكرت في تحذيرك ، اهتماماً بك ! وإليك الدليل » .

وأرته رسالةً من الليدي مُوَجّهةً إلى الكونت واردس . فاختطفها وفضّها رغم احتجاج الخادمة ، وقرأ فيها هذه الأسطر : « لم تَرُدَّ على رسالتي الماضية ، فهل أنت مريض؟ أم نسيتَ ما تحدّثَتْ به أعيُننا في حفلة مدام داكيز ؟ الفرصة أمامك ، أيها الكونت ، فلا تُضيّعْها ! » .

الذي يساورهم . ومن ثم قسمهم أتوس إلى ثلاث مجموعات تولى هو قيادة إحداها وتولى أراميس قيادة الثانية . وبورتوس الثالثة . وكمنت كل واحدة قرب مدخل من مداخل القصر .

بعد هذا تقدم دارتانيان بجرأة نحو الباب الرئيسي . وناول الحاجبَ الرسالة التي يحملها . فأخذه هذا وأدخله إلى مكتبة كان يجلس فيها رجل أمام مكتبه .

٢٤ . الصورة الرهيبة

نظر الكردينال إلى الشابّ لحظةً ، فأحسّ هذا بأن نظراته تسري في عروقه كالحُمّى . ثم تكلم فقال : « هل أنت ، أيها السيد ، من أسرة دارتانيان في « البيارن » ؟» .

— « أنا ابن الرجلِ الذي اشترك في الحروبِ الدينيةِ مع الملك هنري الكبير والدِ صاحب الجلالة المعظّم ! »

— « هذا حسن ! وهل أنت الذي غادرْتَ بلدك منذُ عدّةَ أشهرٍ للبحث عن الثروةِ في العاصمة ؟ »

— « نعم ، يا سيدنا ! »

— « وجئت عن طريق مونغ حيث حدَثَ لك حادثٌ لا أذكُرُه ... » ثم راح الكردينال يَذْكُرُ له كلّ المراحل التي مرّ بها منذ أن وَطِئَتْ قدماهُ أرضَ باريس . وقال له : « ولا بُدّ أنك لاحظْتَ بنفسك أننا راعيناكَ في جميعِ الظروف ! » . ثم امتدح شجاعتَهُ وذكاءه . وعرَض عليه

لانخراطَ في حرَسِهِ . تَوْطِئةً لإسناد قيادة إليه في الحرَسِ الكَرَدينالي ، بعد انتهاء المعركة . فاعتذرَ دارتانيان . ولكن الكردينال نصحه بالتفكير في الأمر ثم صرفهُ بحركة فيها كثيرٌ من التعالي ، فعادَ إلى رفاقه .

وانقضى اليومُ التالي في الاستعداداتِ من أجل الرحيل . وذهب دارتانيان لوداع السيد دي تريفيل . وعندَ انطلاق النفير فَجرَ اليومِ الذي تلاه ، خفّ الفُرسانُ إلى دار السيد دي تريفيل ، والحرسُ إلى دار السيد ديزيسّار . ومن ثمّ توجّهَ كلّ من القائدَيْن بقوّاتهما إلى اللوفر حيث استعرضها الملك ، الذي كان سيسيرُ في المساء .

وبعد انتهاءِ العَرْضِ تحرّكَتْ قُوّاتُ ديزيسّار وحْدَها ، على أساسِ أن قواتِ الفرسانِ سترافقُ الملك . ولما وصلَتْ هذه القُوّاتُ إلى ضاحيةِ « سان أنطوان » لم يُلاحِظْ دارتانيان أن هناك امرأةً كانت تَدُلّ عليه رجلَيْنِ تبدو عليهما أماراتُ الإجرام : كانت تلك « ماي ليدي » ! وقد اقتربَ الرجُلانِ من دارتانيان ليَعرفاهُ جيداً ، ثم استفسرا من السيّدةِ الانكليزية بالنظرات ، فأشارَتْ برأسِها أنهُ هُوَ بعيْنِهِ .

٢٥ . حصار مدينة لاروشيل

كان حصارُ « لاروشيل » من أهمّ الأحداثِ السياسيةِ

التي وقعت في زمن الملك لويس الثالث عشر . ومن أكبر العملياتِ العسكريةِ التي قام بها الكردينال .

وكان الملكُ على أثر الجلسة العلَنية في ٢٣ حزيران . قد شعرَ بأنه محموم . ولكنّ هذا لم يمنعْهُ عن السفر . غير أنّ حالتَهُ ازدادَتْ سوءاً فاضطرّ إلى التوقّفِ في « فيلروا » .

ولما كان الفرسانُ في العادة يبقَوْنَ حيث يكونُ الملك . فقد نتج عن ذلك أنِ افترقَ دارتانيان عن أصدقائه . وقد وصَلَ إلى المعسكرِ المُقام أمامَ مدينة لاروشيل حوالى العاشرِ من أيلول عام ١٦٢٧ .

كان دوق بكنغهام ومَنْ معَهُ من الإنكليز لا يزالونَ يُحاصرونَ قلعة « سان مارتان » وحصن « لابريه » . بعد أن سيطروا على جزيرة « ريه » . وكانتْ العملياتُ الحربيةُ الخاصة بمدينة « لاروشيل » قد بدأت منذ يومين أو ثلاثة من أجل حصنٍ كان دوق « انغوليم » قد بناه حديثاً بالقرب من المدينة .

أما حرَسُ السيد ديزيسّار فقد نزلوا في دير رهبانية « المينيم » . وكان دارتانيان مكتئباً ، فسار يتمشّى في الطريق المؤدّية إلى قرية « أوغوتان » . وطالَ بهِ التأملُ حتى ابتعدَ كثيراً عن المُعسْكر ، وانحدرتِ الشمسُ إلى المغيب . وفيما هو كذلك التمعتْ من وراء سياجٍ على الطريق فُوّهةُ بندقيّة .

وأراد أن ينطلقَ في السّهلِ مبتعداً عن تلك النقطة فرأى فُوّهةً ثانيةً من الجانب الآخر تظهرُ من وراء صخرة .. لقد كان ذلك كميناً بالتأكيد . فنظرَ إلى الفُوّهة الأولى فوجدها تنحدرُ لِتتصوّبَ إليه ؛ وما إنِ استقرّتْ حتى انبطحَ على الأرض ، وفي الوقتِ نفسهِ انطلقت الرّصاصةُ وصفّرَتْ فوقَهُ . وفي الحال قفزَ من مكانهِ فجاءت الرصاصةُ الثانيةُ تُطيرُ الحصَى حيثُ كان راقداً . وراحَ يجري نحوَ المُعسكَرِ بسُرعة . ولكنّ صاحبَ البندقيةِ الأولى عاجَلَهُ برصاصةٍ أخرى قذفَتْ قُبّعتَهُ أمامَهُ مسافةَ عشرةِ أمتار ، فالتقطَها وراح يعْدو حتى وصلَ إلى حُجرتِهِ وأخذ يفكّرُ في هذا الحادثِ . قال في نفسه: إن هناك ثلاثةَ افتراضات ، فمن المحتمَلِ أن يكونَ هذا الهجومُ من قِبَلِ أهلِ لاروشيل . ولكنّهُ لاحظَ ، من فحْصِ الثقبِ الذي أحدثَتْهُ الرّصاصةُ في قُبّعتِهِ ، أن تلك الرّصاصةَ لم تنطلق من بندقيةٍ حربية . بقي أن تكونَ المؤامرةُ إما من الكردينال أو «الليدي» . ولكنْ ليس هذا هو أسلوبَ الكردينال ، فلم يبْقَ إذن إلا أن تكونَ من عمَلِ هذهِ السيدة .

في اليومِ الثالثِ زارَ دوق أورليان المراكز . فاصطفّ الجنود ، ورأى دارتانيان السيّد ديزيسّار يُشيرُ اليه . فتركَ الصفّ واقتربَ منه . فقال له : « إنّ الدوق سيطلب

بعضَ الرجالِ الأقوياء للقيامِ بمُهمّةٍ خطِرة ، لهذا أشَرْتُ إليك كي تكونَ على استعداد ! » .

فأجاب دارتانيان : « شكراً يا سيدي القائد ! » .

كانت المهمة استطلاعية تتطلّبُ إرسالَ جماعةٍ من الفدائيين إلى معْقِلٍ استولى عليه الملكيونَ منذ يومين ثم ستعادَهُ الروشليّون .

وقد أعلَنَ القائدُ العامّ أنه مُحتاجٌ إلى أربعةِ رجال يقودُهُمْ رَجُلٌ يُرْكَنُ اليه .. قال السيد ديزيسّار وهو يُشيرُ إلى دارتانيان : « أما القائدُ الذي يُعْتَمَد عليه فهو تحت يديّ ، يا سيدنا ، وأما الرجال فكثيرون ! » .

ورفعَ دارتانيان سيفَهُ وقال : « أريدُ أربعةَ رجالٍ من ذوي الإرادة ليَصحبوني إلى الموت ! » .

فتقدّمَ اثنانِ من حرَسِ ديزيسّار ، رفاقِ دارتانيان ، وجنديان من الجيش . وسارَ بهم دارتانيان في الخندق . كان يتقدم هو ورَجُلا الحرس وعلى أثَرِهِمُ الجنديان . ولما أصبحَ على بُعْدِ نحوِ مئةِ مترٍ من المَعقِلِ التفتَ إلى ورائه فرأى الجنديَّيْن قد اختفَيا . فظن أنهما خافا ، فرَجَعا على أعقابهما ، ولهذا واصل التقدّمَ ورفيقَيْه . وعند انعطاف الخندقِ كانوا على نحو ستين متراً من المَعقِل . وبينما هم يتشاورونَ صفَرَتْ بينهم نحو اثنتَيْ عشرةَ رصاصةً . وهكذا عرفوا أن المَعْقِل محروس ، فتراجعوا . وعندما



محاولة قتل دارتنيان

وصلوا إلى زاويةِ الخندقِ سقطَ واحدٌ منهم . أما الآخرُ فقد واصلَ طريقَهُ نحو المُعسكر . وأما دارتانيان فانحنى لرفعِ رفيقه . وإذا برصاصتَيْن تحطمُ إحداهما رأسَ الجريح وتصيبُ الأخرى الصخرَ على مسافةِ أربعِ أصابعِ من دارتانيان . فالتفتَ بسُرْعة وراءه ، لأن هاتين الرّصاصتَيْنِ لا يمكن أن تكونا صادرتَيْن عن المَعْقِل ، إذْ أن الزاوية تُغطّيه تماماً . وذكرَ الجنديَيْن اللذيْن اختفيا ، كما ذكرَ كمينَ الأمس . فقرر أن يعرفَ حقيقة الوضع ، ولهذا أوقعَ نفسَهُ على الجريح ليُوهِمَ أنه مات . عندها رأى رأسيْن يرتفعانِ فوق جدارٍ هناك : ولم يكونا سوى رأسيْ الجنديَيْن . لقد كان ظَنّ دارتانيان في محلّه : فهذانِ الرّجُلانِ لم يتبعاه إلا لاغتيالِه .

وتقدّمَ الجنديانِ ليتأكّدا من موْتِه ، ولكنهما نسيا أن يُعيدا حشْوَ بُندقيتَيْهما . وعندما أصبحا على عشْر خُطُوات منه ، قفزَ أمامَهما وسيفُه في يده . وأولُ فكرة خطرَتْ لهما هي فكرة الهرب ، ونفّذَ أحدُهما الفكرة . ولكنّ الرّصاصَ انطلقَ عليه من المَعْقِل . أما الآخرُ فسُرعانَ ما طعَنَهُ دارتانيان في ساقِهِ وألقاهُ أرضاً ، ثم وَضعَ رأسَ سيفه على عنقه . فصاح المُجرم : « لا تقتُلْني وأنا أقولُ لك كلّ شيء ! » .

— « تكلّمْ بسرعة ! من كلّفك بقتلي ؟ » .

— « امرأة لا أعرفها ، يدعونها « ماي ليدي .. »

— « كيف عرفْتَ اسمَها ما دُمتَ لا تعرفُها ؟ »

— « رفيقي هو الذي يَعْرفها ، وفي جيبِه الآنَ خطابٌ منها ! »

— « سأعفو عنك شريطةَ أن تذهبَ وتأتيني بالخطابِ من جيبِ رفيقك ! »

— « ولكنَ هذه طريقةٌ أخرى لقتلي ! »

فنظرَ اليه دارتانيان باحتقار ، وقال : « سأريكَ الفرقَ بين الشجاعِ وبين الجبان الذي على شاكلتك .. هأنذا ذاهب! » وانطلقَ دارتانيان حتى وصلَ إلى الجنديّ القتيل ، فحمله على ظهره وجعلَ منه تُرْساً يحتمي به من نيران العدوّ . وجاءت ثلاثُ رصاصات في جسد الجنديّ الذي اختلجَ وأنّ ثم سكن . إذن لم يكنْ قد مات ، وقد أنقذَ حياة دارتانيان التي جاء ليَسْلُبَهُ إياها .

ولما وصل إلى الخندقِ فتّشَهُ ، فوجد باقيَ حصتهِ من المئة ذهبية التي دفعتها المحرّضة ، كما وجدَ الرسالةَ التي جاء فيها قولها : « بما أنك فقدْتَ أثر تلك المرأة ، التي أصبحت بمأمن في الدير ، وما كان عليك أن تدعَها تصلُ اليه . فحاولْ ألا تخطىء الرّجُلَ على الأقل . وإلا فأنت تعرف أن باعي طويلةٌ وأنك ستدفعُ غالياً ثمنَ المئةِ ذهبية التي أخذْتَها . »

فأما كيسُ النقود فقد ألقاهُ إلى الجنديّ الجريح وأما الرسالةُ فقد احتفظ بها كمُستَنَد اتّهام . ثم قدّمَ ذراعَهُ إلى الجنديّ ، الذي لم يكن يُصدّق أنه يوجَدُ مثلُ هذا النُّبل في العالم .

وفرِحَتِ الفرقةُ أيّما فرحٍ بمَقْدَم دارتانيان ، لأنّ رَجُلَ الحَرَسِ الذي كان قد نجا أعلنَ أن رفاقَهُ الأربعةَ قد قُتلوا .

٢٦ . نبيذ أنجو

كان دارتانيان متحرّقاً إلى معرفةِ أيّ شيء عن رفاقه الثلاثة. وها هو يتلقّى ذاتَ صباحٍ من أوائلِ أيلولَ رسالةً هذا نصّها : « السيد دارتانيان : إن السادة أتوس وبورتوس وأراميس ، بعد أن لعبوا عندي ومَرحوا ، قد أحدثوا ضَجّةً كبرى دفعت قائد الشرطةِ العسكريةِ بالقصر إلى احتجازهم لبضعةِ أيام . وقد كلّفوني بأن أرسلَ اليك اثنتَيْ عشرةَ زجاجة من خمرة أنجو . وهم يَرْجونك أن تشربَ على صحتّهم من خمرهم المفضل ! ... » وكانت موقّعةً باسم غودو . صاحبِ الفندق الذي ينزل فيه السادةُ الفُرْسان .

وقرر دارتانيان أن يَدْعُوَ اثنَيْن من الحَرَسِ شاركاهُ في احتساء تلك الخمرةِ الممتازة .

وما إن حان الموعد حتى راحَ بلانشيه يُعِدّ الطعامَ

يعاونُهُ في ذلك خادمُ أحدِ المَدْعُوّين والجنديَ المزيّفُ الذي حاولَ قتلَ دارتانيان .

ولما حضر المدعُوّانِ أخذ بلانشيه يضعُ الأطباق . وأخذ الخادمُ « فورّو » يفتحُ الزّجاجات . أما الجنديَ المزيّف « بريزمو » فراح يصبّ النبيذ للقوم . وفجأة انطلقتِ المدافع من قلعة « لويس » فهبّ الثلاثةُ وَجرَوْا إلى الخارج . وما لبثوا أن عرَفوا سببَ القصْف . بعد أن سمعوا هُتافات باسمِ الملكِ والكردينال . ذلك أنّ الملك وصلَ ومعه إمداداتٌ تبلغُ عشرةَ آلاف رجل . وبعد أن انتهى الاستقبالُ اجتمعَ دارتانيان ورفاقُهُ الثلاثة . قال دارتانيان لرفاقهِ : « لقد وصلتم في الوقت المناسب ! .. »

قال بورتوس : « يبدو أننا سنحضُرُ اليومَ وليمة ! »

وسأل أتوس : « وهل توجد خمرةٌ جيّدةٌ في هذه الناحية ؟ »

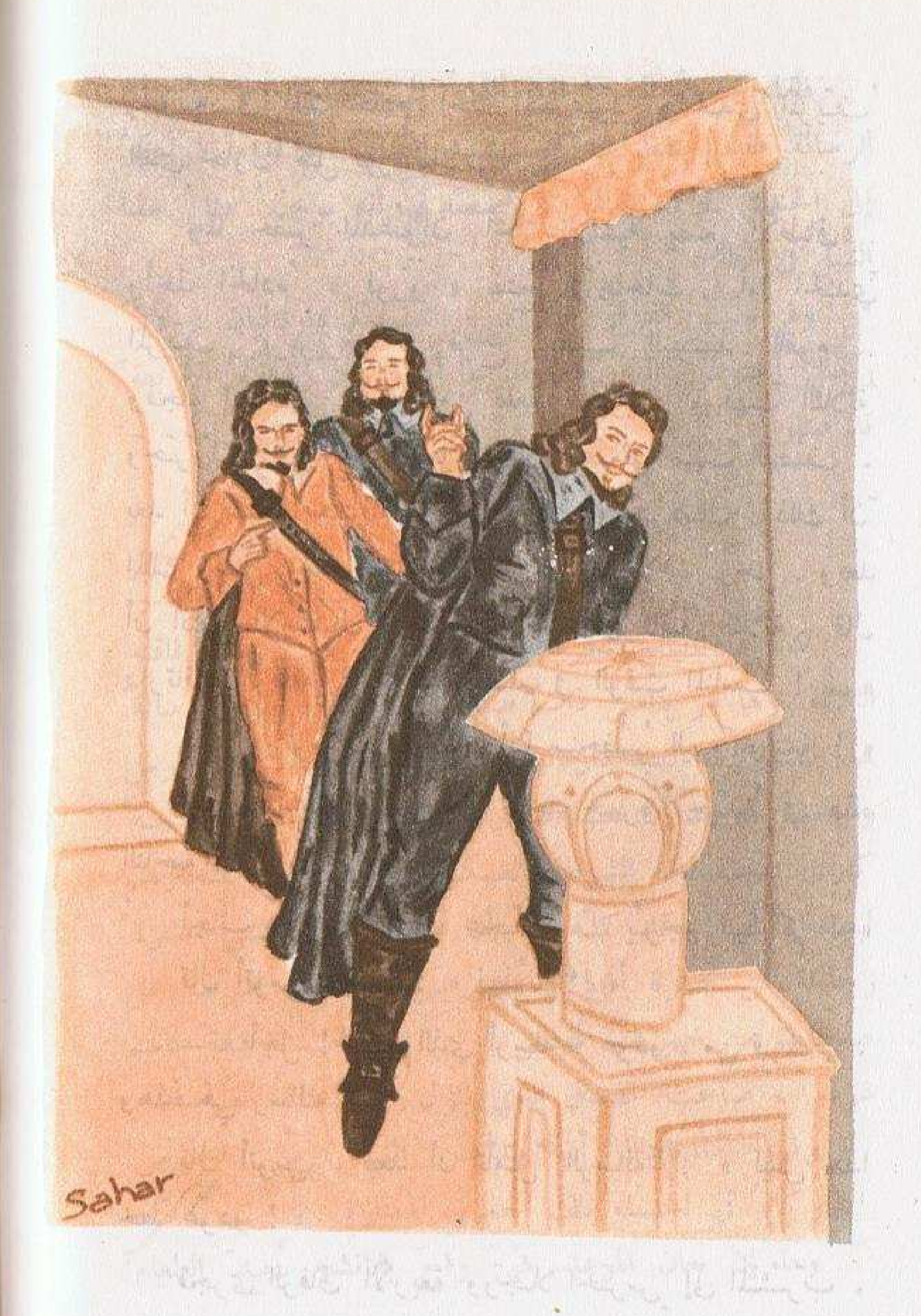
أجاب دارتانيان : « عجباً ! .. يُوجد نبيذُكم ! »

قال أتوس دَهِشاً : « نبيذُنا ؟! »

— « أجل ! النبيذ الذي أرسله « غودو » من قِبَلِكم . وهذه هي رسالته ! »

قال أتوس ، بعد أن تأمّلَ الرسالةَ : « ليس هذا خطّ غودو ! »

فجرى الرفاقُ الأربعةُ ورَجُلا الحَرَسِ إلى المَشْرَب .



الفرسان يسترقون السمع

ودخلوا حُجرةَ الطعام . وأوّل ما فاجأهم منظر « بريزمو » الذي كان منطرحاً على الأرض وهو يتلوّى ويتشنّج ، وما لَبِثَ أن فارقَ الحياة : لقد كان النبيذُ مسموماً ! فاعتذر دارتانيان من ضَيْفَيْه واعداً إياهما بدعوةٍ أخرى . ولما خلا الرفاقُ الأربعةُ إلى أنفسهم انتقلوا إلى مكانٍ آخر ، حيث أكلوا بيضاً وشربوا ماءً بدلَ الخمرة . وقد اتفق رأيُهُمْ على أنّ هذه الضربةَ كانت من تدبيرِ الليدي التي أصبحَ دارتانيان متأكداً أنها زوجةُ أتوس .

* * *

ما إن استقرَّ بالملك المُقامُ حتى فكّرَ في اتخاذ الاجراءات من أجل طرد الانكليز من جزيرة « ريه » وتضييق الخناقِ على مدينة « لاروشيل » لإجبارها على الاستسلام .

وذاتَ مساءٍ ذهبَ أتوس وبورتوس وأراميس ، دون دارتانيان الذي كان في الخنادق . إلى حانةٍ تدعى « برج الحمام الأحمر » . وبينما كانوا عائدَيْن سمعوا وقعَ حوافرِ خيلٍ تجري . فتوقفوا . ولم تمضِ لحظاتٌ حتى ظهرَ فارسان . توقّفا هما أيضاً . متردّدَيْن . فصاح أتوس : « من أنت ؟ » فردَّ أحدُهما بلهجة المتعوّد إصدارَ الأوامر : « بل قُلْ أنتَ من تكون ؟ »

بعد هذا تقدّمَ الفارسان . وكان الذي تكلّم يحجب وجهَهُ بطرَفِ معطفِهِ . فلما كشفَ وجهَهُ رأى الفرسانُ

الأربعةُ أمامهم نيافةَ الكردينال !

كان الكردينالُ قد خرجَ متخفياً من المُعَسْكر فقال لأتوس ورفيقيه : « أنا أعرفكم أيها السادة .. أعرفُ أنكم لستم أصدقائي ولكني أعرف أيضاً أنكم شجعانٌ وأشراف ، وأن في إمكان المرءِ أن يَثِقَ بكم. ولهذا أرجو أن أتشرَّفَ بمرافقتكم لي . فتكون لي حاشيةٌ ملكية ! »

قال أتوس : « أنت على حقَ ، يا صاحبَ النيافة ، في أن تَصْطَحِبَنا ، لأننا رأينا في الطريق وجوهاً لا يُؤْمَنُ شرَّها ، وقد اصطَدَمْنا مع أربعةٍ من هؤلاء الأشقياء في البرج الأحمر ، حيث كانوا يريدون اقتحام حجرةِ نزيلةٍ هناك » .

قال الكردينال بشيء من القلق : « أكانت المرأة شابة جميلة ؟ » .

— « نحن لم نرها ، يا سيدنا ! »

— « حسناً ! .. لقد أحسنتم صنعاً بدفاعكم عن سيدة ! .. أنا ذاهبٌ إلى هناك .. هل المرأة وحدها ؟ » .

— « معها رجلٌ لم يخرجْ من الحجرة ! »

ووصلوا إلى النُزُل الذي كان يقف عند بابه جوادٌ مُسْرَج . فأوقف الكردينالُ صَحْبَهُ على بُعْدِ عشر خطوات . وقَرَعَ البابَ بشكلٍ معين . فخرج رَجُلٌ مُلْتَفّ بمعطف . وتبادلَ كلماتٍ مع الكردينال . ثم

ركبَ الحصانَ وانطلق .

وترك الكردينالُ صحبَهُ ينتظرونَ في الطابق الأرضي وصعد هو السُلَّم كمن لا يحتاجُ إلى دليل .

٢٧ . فائدة المداخن

جلس بورتوس وأراميس يلعبانِ «بالزهر» ، بينما راح أتوس يتمشّى في الحُجرة المغلَقة عليهم . وسمع ، وهو يمرّ بجانب المَوْقد وشَوْشَةً صادرةً من الحجرة العُليا . لأنّ المدخنةَ كانت مكسورةً من الوسط . فأشار إلى رفيقَيْه أن يَصمتا ، وقرّبَ رأسَهُ من الفتحةِ وأصاخَ السَمْعَ . كان الكلامُ جلياً وقد سمع الكردينال يقول : « إجلسي هنا ، ماي ليدي ، ولْنَتَحَدّثْ ! » .

فأجاب صوتٌ أنثويّ ما إن سمعه أتوس حتى ارتعد : « إنني أستمعُ إليك بكلّ انتباه . يا صاحبَ النيافة ! »

— « إن باخرةً صغيرةً جميعُ رجالها من الانكليز وقبطانها يَخُصّني ، تنتظرك عند مَصَبّ نهر « شارنت » ، قرب قلعة « لابوانت » . وهي ستُبْحر صباح غد . »

— « إذن يجبُ أن أذهبَ إليها هذه الليلةَ ؟ » .

— « بل في الحال ! ستجدين لدى خروجكِ رجلَيْن سوف يرافقانك إلى هناك . سأخرجُ أنا أولاً ، وبعد نصف ساعةٍ تخرجينَ أنتِ بدَوْرِكِ ! »

ثم راح الكردينالُ يشرحُ لها المهمةَ التي يجبُ أن تقوم بها في انكلترا . وهي تتلخصُ في إبلاغِ دوق بكنغهام أنه ، إذا لم ينسحبْ ، فسيقضي ، هو ، على الملكة ويفضَحَهُ لأن لديه مماسِكَ كثيرةً ضدّه . وأفهمَ الليدي أنه سيلجأ إلى إرسالِ من يغتالُ بكنغهام إذا استمرّ هذا في تهديد فرنسا . فأبدتِ الليدي استعدادَها لمثل هذه العملية .

وقالت الليدي بعد أن فهمت كل تعليمات الكردينال وأعادتها أمامه : « الآن وقد تلقيتُ تعليمات سيّدنا فيما يختص بأعدائهِ ، هل يسمحُ لي بأن أقولَ كلمتَين بخصوصِ أعدائي ؟ » .

— « وهل لكِ أعداء ؟ .. من هم ؟ » .

— « أولاً تلك الدسّاسة بوناسيو ! » .

— « إنها في سجن بمدينة « مانت » ! » .

— « تعني أنها كانت فيه ! .. ولكنّ الملكةَ حصلت من الملكِ على أمرٍ بنقل هذه المرأة إلى أحد الأديرة ، ولا أعرفُ أيّ دير ! » .

— « أنا سأعرفُ ذلك ! » .

— « وستُخبرني نيافتُكَ باسمِ الدير ؟ » .

— « لا أرى مانعاً من ذلك ! » .

— « هناك عدوّ آخرُ أخطرُ من مدام بوناسيو ، وأعني

به ذلك الشقيّ دارتانيان » .

— « إنّه شابٌ جَسور ! »

— « وهذا بالضبط هو الذي يجعله خطراً ! »

— « لا بُدّ من إثباتات على اتصاله ببكنغهام ! »

— « أستطيعُ أن أحصلَ على عشرة إثباتات ! »

— « إذن يكون من أسهلِ ما يمكنُ إلقاؤه في الباستيل ! »

— « سيّدنا ! أنا أقايضُكَ رَجُلاً برَجُل ! أعطني هذا أعطِكَ الآخر ! »

— « لم أفهمْ قَصْدَكِ .. ولكنني أريدُ أن تكوني راضية ! .. أعطيني ورقاً وحبراً وريشة ! » .

ومرّتْ لحظاتُ صمتٍ : لا بُدّ أن الكردينالَ كان يكتب . فعاد أتوس إلى رفيقيه وقال لهما : « أنا سأخرج !.. قولا للكردينال إنني ذَهَبْتُ لأكشفَ له الطريق ، لأنني سمعتُ من صاحبِ الفندق أن هناك بعضَ المخاطر ! » .

وما لبثَ الكردينال أن فتحَ عليهما البابَ ، وجالت أنظارُه في الحجرة . فأبلغاه ما قاله رفيقُهما ، فقال : « إذن هيّا بنا ! » .

أما أتوس فقد أقنعَ مرافقَ الكردينال بضرورةِ كَشْفِ الطريق لحماية نيافته . ثم ركب حصانَهُ وسار وهو يؤدي دورَهُ بدِقّة ؛ وما إنْ وصلَ إلى المُنْعَطَف ، حتى انطلقَ

كالسهم ، ودارَ دَوْرةً كبيرةً ، ثم جاء فاختفى في غابة وراء الفندق . وما هي سوى لحظات حتى مرّ أمامَه موكبُ الكردينال . ولما ابتعدَ الرّكْبُ جاءَ أتوس إلى الفندق وقال لصاحبه : « إنّ رئيسي نسيَ شيئاً هاماً يريدُ أن يقولَهُ للسيدة التي في الطبقة الأولى ، وقد كلّفني بذلك ! »

فقال الفُنْدُقيّ : « إصعَدْ فهي ما زالت في حجرتها ! »

كان الباب مَشْقوقاً، فدخلَ منهُ أتوس وأقفله، فارتعدت « ماي ليدي » وقالت : « من أنت ؟ وماذا تريد مني ؟ » فقال أتوس : « هل عرَفْتِني ، يا سيدتي ؟ » .

فتقدّمَتْ خُطوةً ثم ارتدّتْ كأنها رأت أفعى أمامها . قالت ، وقد اصفرّ لونها وتراجعت حتى الجدار : « كونت دي لافير ! » .

— « أجل ، ماي ليدي ! كونت دي لافير بشخصه ، وقد جاء من العالم الآخر ليحظى برؤية وجهك ! » .

فما كان من الليدي إلا أنّ جلست ، لأن ساقَيْها لم تَعودا تستطيعانِ حَمْلَها . واستطردَ أتوس قائلاً : « كنتِ تحسبينني ميتاً ، كما كنتُ أنا أحسبكِ ميتة ! لقد أخفى أتوس الكونت دي لافير ، كما أخفت ليدي كلاريك آنَ دي بواي . . ألم يكن هذا هو اسمكِ عندما قام أخوكِ المبجّل بتزويجنا ؟ ! »

— « ولكن ماذا تريد مني ؟ »

— « أريد أن أقولَ لكِ إنني ، كنت رغم غيابي عن عينيك أتتبّعُ خطاكِ خُطْوةً خطوةً ، وفي استطاعتي أن أسرُدَ عليكِ كلّ ما قمتِ به من يوم أن دَخلْتِ في خدمة الكردينال حتى هذا المساء ! فاسمعي ما أريدُ قولَهُ : أن تغتالي أو لا تغتالي دوق بكنغهام ، هذا شيء لا يَهُمّني ؟ ولكن إياكِ أن تمسّي شعرةً واحدة من رأس دارتانيان ، وإلا فستكون هذه آخرَ جريمة ترتكبينها ! » .

ثم أخرجَ مُسَدّسَهُ ووضعَهُ بين عينيها ، وقال : « إنني أمنحكِ ثانيةً واحدةً لتسلّميني الورقةَ التي كتبها لكِ الكردينال ! »

وكانت الورقة تشتمل على هذه الكلمات : « إن حاملَ هذا قد فعلَ ما فعلَ بأمرٍ مني ولخير الدولة » .

ريشيليو

في ٣ كانون الأول ١٦٢٧

واجتمع الأصدقاءُ الأربعةُ فقال أتوس : « قوموا بنا إلى نُزُل « باربايو » ، فالجدرانُ هنا أشبهُ بالورق ! »

ففهم دارتانيان ، الذي يعرف أتوس جيداً ، أن لَدَيْهِ شيئاً خطيراً ، يريدُ أن يقولَهُ . وحين وصل الرفاق إلى المَشْرَب ، كان بُوقُ الصباحِ قد انطلق ، وتجمّعَ في المَشْرَب عددٌ كبيرٌ من الفرسان والخيّالة لتناول الفطور ، فلم يكنِ المكانُ ملائماً للأحاديثِ السرية . ولهذا وَجَدَ

أتوس حُجَّةً للذّهاب إلى مكان منعزل ، فتراهنَ مع
أربعةٍ من الخيالة على أن يُفطِرَ هُوَ وصَحْبُهُ في قلعة « سان
جرفيه » ، التي كان يعلم أنها خالية فقَبِلَ الخيالةُ الرّهان .

الأفضلُ لي إذن أن أقتل نفسي لأستريحَ مرّةً واحدةً ! »
— « هذه آخرُ حماقة يمكن أن تلجأ إليها ، وهي الحماقةُ
الوحيدةُ التي لا علاج لها ! » .

الأراضي الفرنسية . ولقد خطر لها أن تلقي بنفسها إلى الماء وتعود إلى الساحل ، لأنها لم تتصور كيف تترك البلاد دون أن تنتقم لنفسها من دارتانيان وأتوس .

ولما وصلت الباخرة التي تحمل الليدي إلى الميناء البريطاني اقترب منها مركب حربي مسلح ، وأنزل منه قارب فيه ضابط بحري ومعاون وثمانية مجذفين . وحين أصبح القارب في محاذاة الباخرة التجارية ، صعد اليها الضابط وحده . وهناك قابل القبطان وقدم اليه بعض الأوراق . وعلى أثر ذلك جمع القبطان كافة الركاب ، وأخذ يستعرضهم واحداً واحداً . وعندما اقترب من الليدي أخذ يتأملها . وسرعان ما نقل متاعها إلى القارب ، ثم جاء الضابط يدعوها إلى الهبـوط معه . فترددت ، وقد داخلها الشك ثم قالت : « من أنت ، يا سيدي ؟ »

— « بوسعك أن تعرفي من أنا من ملابسي الرسمية ، يا سيدتي : « أنا ضابط في البحرية البريطانية ! »

— « وهل من عادة ضباط البحرية أن يضعوا أنفسهم تحت تصرف مواطنيهم عندما يصلون إلى أحد الموانىء البريطانية ،وأن يبالغوا في اللطف إلى حد إيصالهم إلى البر ؟ » .

— « نعم ، لقد جرت العادة على أن يؤخذ الأجانب ، في أثناء الحرب ، إلى أماكن معينة ، ليكونوا تحت رقابة الحكومة . »

ولما وصلوا إلى البر ، أركب الضابط الليدي عربة كانت في الانتظار ، ثم ركب إلى جانبها ، وانطلقت بهما العربة . وبعد نحو ساعة توقفت أمام قصر منعزل . بسيط البناء ولكنه ضخم واسع .

وسمعت الليدي ، وهي تهبط ، هدير البحر . قالت للضابط بابتسامتها الجميلة الفاتنة : « إذن فأنا أسيرة ؟!» .

وقادها الضابط إلى طبقة أولى ووقف أمام باب ضخم فتحه بمفتاح كان يحمله ، ودعاها إلى الدخول قائلاً : « أنت الآن في الجناح المخصص لك ، يا سيدتي ! لقد أمرت بأن أذهب لآتي بك من البحر وأوصلك إلى هذا القصر . إلى هنا تنتهي المهمة التي أوكلت إلي ، أما الباقي فيخص شخصاً آخر ! » .

— « ومن هو هذا الشخص الآخر ؟ »

— « ها هو . يا سيدتي ! » .

في نفس اللحظة ظهر رجل على عتبة الباب . فهتفت الليدي : « ماذا ؟ أخي ؟ أهذا أنت ؟ » .

فأجابها اللورد ونتر : « أجل . أنا بنفسي ! » .

— « إذن فأنا أسيرتك ؟!» .

— « تقريباً ! » .

— « ولكن هذا استغلال بشع للنفوذ ! » .

— « أرجوك ! إجلسي هنا . ولنتحدث بهدوء كما

يصحَ أن يكون الحديثُ بين أخٍ وأخته ! » .

ثم التفتَ إلى الباب حيثُ كان الضابطُ الشابَ لا يزال واقفاً في انتظار أوامرَ جديدة ، وقال له : « حسناً ... أشكرك ! والآن . أتركْنا وحدنا يا سيد فلتون ! »

ثم استطردَ موجهاً الحديثَ إلى الليدي :

— « إذن فقدْ قررتِ العودةَ إلى انكلترا !؟» .

— « قلْ لي أولاً كيف راقبْتَني هذه المراقبةَ الدقيقة ، فعلمتَ . لا بمقدَمي وحسْب . بل باليومِ والساعةِ والمرفأ الذي سأهبطُ فيه ؟ » .

— « بل قولي لي أنتِ ، يا أختي العزيزة ، ماذا جئتِ تفعلين في انكلترا ! »

— « جئت لأراكَ ! » .

— « إذن فمن أجلي تحمّلتِ كلَّ المشقّةِ باجتيازِ المانش . في مثل هذه الظروف ؟! ... يا لرقّةِ قلبكِ ، يا أختي ! » .

— « أولَسْتُ أقربَ الأهلِ إليك ؟ » .

— « بل وريثي الوحيدة ، أليس كذلك ؟» .

ثم صارحَهَا بأنه يعرفُ أنها متزوجةٌ في فرنسا ، قبل أن تتزوّج أخاه ، وأن زوجَها الأوّلَ ما زال على قيدِ الحياة ، وأنها موصومةٌ بالعار . ويُمكِنُ تصوّرُ الهياجِ الذي سيطرَ على الليدي . حتى إنها هجمَتْ على اللورد تريدُ أن

تَنْشِبَ أظافرها في عُنُقِهِ . وقال لها إنه سيسافرُ بعد عشرينَ يوماً ، إلى لاَروشيل ، مع الأسطولِ وقبل ذلكَ سيرسلُها إلى الممتلكاتِ البريطانيةِ في الجنوب لتقضيَ هناك بقيّةَ حياتها .

بعد هذا استدعى الضابط « فلتون » وقال له : « أنظُرْ إلى هذه المرأة : إنها شابة .. إنها جميلة .. ولكنها وحشٌ رهيب ! فلقد اقترفتْ من الجرائم ، وهي ما زالت في الخامسة والعشرين ، ما تحتاجُ أنتَ إلى عامٍ كاملٍ لقراءته في ملفّات محاكمنا ! .. إنها ستحاولُ إغواءَكَ ، بل قد تحاولُ قتلكَ ! .. وقد عادتْ إلى انكلترا للتآمرِ على حياتي ، فاحرُسني منها ، واحترِسْ لنفسكَ ! » .

٣١. سيدي الضابط

خرج الكردينال ، وفي صُحبته كاهيزان ولاهودينير ، ليروّحَ عن نفسه ، لأنّهُ لم يتلقَّ أنباءَ من انكلترا ، ولهذا كان فريسةً للقلق .

وبينما هو سائرٌ سمِعَ ضَحِكاً وعَرْبَدَةً من وراءِ سياج . كان الفرسانُ الأربعةُ متجمعينَ حوْلَ دَنٍّ من الخمر ، وكانوا يقرأون خطاباً . ولكنَّ « غريمو » رأى الكردينالَ فصاح : سيّدي الضابط ! فالتفتَ الفرسان فاذا بهم يرونَ الكردينال. عندها وقفوا تحيّةً له.فقال لأراميس: «ما

هذا الخطابُ الذي تقرأه ؟ » .

— « إنه رسالة من امرأة ، يا سيدنا ! » .

وكان يَوَدّ صاحبِ النيافةِ أن يَطّلعَ عليه ، ولكنّ أراميس كان صامداً في موقفه . فتولى الكردينال عنهم وهو يبتسم ابتسامةً تخفي غضباً وغيظاً عظيمَين .

كانت الرسالةُ من ابنةِ عمّ أراميس ، ماري ميشون ، وفيها تخبرُه — بالألغاز طبعاً — بأن مدام بوناسيو قد أُرسلتْ إلى ديرٍ للكرمليّين في « ستيني » ، حمايةً لها ، لأنّ الخطر يحيطُ بها في كل مكان آخر . وهي تُعْرِبُ عن استعدادها لإيصال رسالةٍ اليها من دارتانيان .

فاطمأن دارتانيان وشكر أراميس على اهتمامه .

٣٢ . اليوم الاول من الاسر

كانت الساعةُ الثامنةَ مساءً على وجهِ التقريب . ولاح لليدي ضوءٌ تحت الباب . فألقتْ رأسَها على مسندِ المقعد ، ووضعتْ يداً على قلبها ، بينما تركتِ الأخرى تهبط . قال صوتُ فلتون الذي عرفتْه : « ضعِ المائدة هنا ، واذهبْ فغيِّرِ الحارس ! » وكان فلتون لم ينظرْ بعدُ إلى الليدي . فلما حانت منه التفاتةٌ نحوها قال : « إنها نائمة ! .. حسناً ، عندما تفيقُ تتناولُ طعامها ! » فقال الجنديّ : « سيدي الملازم ! إنها ليست نائمة ، بل هي مُغمىً عليها ! » .

— « إذهبْ إذن وأخبرِ اللورد بذلك فأنا لا أعرف ماذا عليّ أن أفعلَ في هذه الحالة ! » .

فذهب الجنديّ وجلسَ الضابطُ على كرسيّ . كان يُديرُ لها ظهرَهُ فراحت تنظرُ من خلالِ أهدابها الطويلة ، ولكنه لم يلتفت . وفكّرتْ أن اللورد ونتر سيأتي عما قريب . إذن فالمحاولةُ الأولى ضاعتْ دون فائدة. فرفعتْ رأسَها ، وتنهّدت بضعف . فالتفتَ الضابطُ وقال : « هه ! .. ها أنتِ قد صَحَوْتِ ! إن احتجتِ إليّ فاقرعي الجرس ! »

— « وهل سأبقى وحدي في هذه الحجرة المُوحِشة؟ ».

— « ستأتي هنا غداً سيدةٌ من الجوار لتكونَ إلى جانبك ، كلّما احتجتِ اليها . »

وفي هذه اللحظة جاء اللورد ونتر . ومعه قارورةُ أملاح وقال: «هل الميْتةُ قد بُعِثَتْ ! ؟ فلتون، يا بُنيَّ ، ألم تلحظْ ان هذا هو الفصلُ الأولُ من الهزلية التي سنَشْهَدُ فصولها ؟ »

ثم التفت إلى الأسيرة . وقال لها : « إنّ امتناعكِ عن الطعامِ لن يُفيدَكِ ، يا سيدتي . تذوّقي هذه الدجاجةَ وهذه الأسماكَ ، فأنا لم أسمّمْها ... صدّقيني ! وإلى اللقاء في الإغماءِ الآخر ، يا أختي العزيزة » .

٣٣ . اليوم الثاني والثالث من الاسر

في اليومِ التالي جاء فلتون والمرأة التي وعد بإرسالها

إلى الليدي . فوجدا الليدي في السرير . كانت الليدي صفراء بطبيعتها ، بحيث يمكن أن تغش من يراها للمرة الأولى ، وما إن رأته حتى قالت له : «انني محمومة . لم أنم طوال الليل .. فهل لي أن ألازم السرير ؟ » .

فسألتها المرأة : « هل تحبين أن ندعو الطبيب ؟ »

— « وما فائدة ذلك ؟! .. إن هؤلاء السادة قالوا أمس إن آلامي تمثيل في تمثيل .. وهل سيتغير الحال اليوم ؟ »

قال فلتون الذي كان يستمع وهو على عتبة الباب :

— « قولي لنا أي علاج تريدين ، يا سيدتي ؟ » .

— « وهل أعرف ، أنا ؟ .. أعطوني ما تريدون ! »

فتقدم فلتون نحوها . قالت في نفسها : « ها هو قد أتى ! »

وقال الضابط : « إننا لا نستطيع أن نتركك هكذا .. إن كنت تتألمين فعلاً فدعينا نطلب طبيباً ! » .

فلم ترد الليدي ، بل ألقت رأسها الجميل على الوسادة ، وأخذت تبكي وتشهق . ولما رأى فلتون أن النوبة ستطول ، خرج من الحجرة ، ووراءه السيدة .

وانتظرت الليدي عودة فلتون لرفع مائدة الفطور . ولم يكذب ظنها فقد عاد . وكان في يده كتاب هذه المرة . وقال لها : « إن اللورد ونتر ، الذي هو كاثوليكي مثلك ، رأى أن حرمانك من الطقوس الدينية قد يؤلمك ، لذا أرسل إليك هذا الكتاب لتلاوة صلواتك ! » .

وأدركت الليدي ، بذكائها العجيب أن الضابط يتبع المذهب الطهري البروتستانتي ، وذلك من الابتسامة الساخرة والطريقة التي لفظ بها كلمة « صلواتك » . وفي الحال عرفت على أي وتر يجب أن تضرب .. فقالت باحتقار وترفع : « أنا ؟! صلواتي أنا ، يا سيدي ؟! إن اللورد ونتر الكاثوليكي الفاسد ، يعلم جيداً أنني لست من عقيدته ! »

فسألها باستغراب : « وما هي عقيدتك إذن ، يا سيدتي ! ؟ »

قالت بحماسة مصطنعة ، كأنها تتلقى الإلهام من عل : « سأعلن ذلك عندما أكون قد تحملت الكفاية من الآلام في سبيل الإيمان ! » .

فنظر إليها بشكل كشف لها مبلغ ما فتحت لنفسها من آفاق ، بهذا الكلام . فاستطردت بنفس اللهجة وبنفس التحمس الذي تعرفه عند الطهريين : « أنا الآن في أيدي أعدائي ، فلينقذني الله ، إذا شاء ، وإلا فلأمت من أجل ربي ! هذا هو الرد الذي أرجو أن تبلغه إلى اللورد ونتر ! أما هذا الكتاب ففي وسعك أن تأخذه وتستخدمه أنت ، لأنك ، دون شك شريك اللورد ونتر في اضطهاده للمؤمنين ، ومروقه ! » . فلم يرد فلتون بل أخذ الكتاب وخرج .

في الساعة الخامسة أقبل اللورد ونتر ، فاستقبلته بشكل يدل على أنها استردت مواقعها ، فقال : « يبدو أنه

حدَثتْ لدينا رِدّةٌ صغيرة ! .. هل غيّرتِ ديانتَكِ ؟ لعلكِ وجدتِ ، بالصّدفة ، رجلاً ثالثاً بروتستانتياً ؟! » .

— « إنك تتحدث على هذا النحو ، يا سيدي ، لأنك تعرفُ أنهم يسمعوننا .. لأنك تريدُ أن تملأ بالحقدِ عليَّ قلبَ هؤلاء السجّانين والجلادين الذين أحطْتَني بهم » .

قال اللورد وهو ينهض : «يلوحُ لي أن الفاجرةَ قد فقدَتْ عقلَها أيضاً : ! .. هدّئي روعَكِ ، يا سيدتي الطّهرية ، وإلا أرسلتُكِ إلى زنزانة ! » .

وسمع فلتون كلّ ما دار من حديث : لقد صحّ ظنُّ الليدي . وعندما آنسَتْ أنهم يحملونَ اليها العَشاء ، راحت تصلّي وترتّل بصورةٍ توحي أنّها ذاهلةٌ عن كل شيء .

وخُيّلَ للضابطِ الشابّ أن ملاكاً يُرتّل ، ففتح البابَ بهدوء ، وقال لها :

— « لِمَ تُنشدينَ هكذا ، وبمثل هذا الصوت ؟ » .

— « عفوَكَ يا سيدي ! لم أكن أعلمُ أن نشيدي لا يروقُ من في هذا القصر ! سأصمت ! » قالت هذا وهي تُسبِلُ عينَيْها الفاتنتَيْن ، فقال : « كلا ، كلا ! بل اخفِضي صوتَكِ قليلاً ، وخاصةً في الليل ! » .

لقد استولت نهائياً على الضابط الشابّ ، ولكنه كان يقاومُ بشدّةٍ وفاءً لواجبه ولرئيسه . ولكنّ تلك المرأةَ العجيبةَ ظلت تواصلُ سحرَها وتأثيرَها عليه ، حتى قضت

على مقاومته . وفي أثناء حديثها عن الخططِ الرهيبةِ التي يُبيّتُها لها اللورد ونتر قالت لفلتون : « إن صديق المجرم لا يتورّع عن شيء ! » .

فقال ونتر : « ومن تقصدين بالمجرم ؟ » .

— « وهل هناك في انكلترا ، أكثر من مجرم واحد؟ ».

قال فلتون وقد اتّقدت عيناه : « أتقصدين دوق بكنغهام ؟ .. إن يدَ الربّ مبسوطةٌ فوقه ، ولن يُفلِتَ من العِقاب الذي يستحقّه ! » .

في ذلك المساء جاءها لورد ونتر وقرأ عليها أمراً بإبعادها لا يحتاج إلا إلى توقيع دوق بكنغهام . وأخبرَها بأنه سيُعاد مُوَقّعاً بعد يومين ، وبعد ذلك بأربعٍ وعشرينَ ساعةً سيُنَفّذ .

إذن ما زالَ أمامَها أربعةُ أيامٍ ، وهي كافيةٌ للسيطرةِ نهائياً على فلتون .

٣٤ . اليوم الرابع والخامس من الأسر

في اليومِ التالي ، عندما دخلَ فلتون على الليدي . وجدَها واقفةً على مقعد ، وفي يدها حبلٌ صنَعتْهُ من مِزَقِ مناديل ، وحاولتْ أن تربطَهُ بمسمارٍ في الحائط . كانت تلك تمثيليةً بالطبع ، ولكنها أدّتْ إلى النتيجةِ التي ترمي اليها الليدي . فلقد اهتزّ فلتون من الأعماق ، وقال :

« إنّ الله قد نهانا عن الانتحار ! » .

— « عندما يرى الله ، يا سيّدي ، عبداً من عباده المضطهَدينَ دون ذنب ، وقد وُضِعَ بين أمرين هما العارُ أو الانتحارُ ، فانه يَغفِرُ له انتحارهُ ، ويكونُ الانتحارُ في هذه الحالة هو الاستشهاد ! » .

— « أنا مكلّفٌ بالسهر على حياتِكِ ، يا سيدتي ! »

— « أتعتقدُ أن اللهَ يفرّق ، يومَ الحساب ، بين الجلادينَ العُمْي والقضاة الجائرين ؟ ! أنت تريدُ مني أن لا أقتلَ جسدي ولكنّكَ تتعاونُ مع من يريد قتل روحي ! » .

— « أؤكدُ لكِ ، يا سيدتي ، أنْ ليس هناك أيّ خطرٍ يتهدّدُكِ .. أنا واثقٌ من اللورد ونتر ثقتي بنفسي ! » .

« يا لكَ من ساذَجٍ يَضْمَنُ رجلاً آخر في حين أنّ أحكمَ الحكماء لا يَضمنونَ حتى أنفسَهم ! .. » .

فجمع فلتون يديه وصاح : « خبريني باللهِ من تكونين ! ،أأنت مُرْسَلَةٌ من الله ، أم رسولةُ الجحيم ؟ .. أأنتِ ملاكٌ أم شيطان ؟ » .

— « ألم تعرِفْني حتى الآن ، يا فلتون ؟ ! أنا لستُ مَلَكاً ولا شيطاناً ، إنما أنا أختٌ لك في العقيدة .. هذا كلّ ما في الأمر ! » .

— « نعم . نعم ! .. لقد كنتُ أظنّ ذلك ظنّاً ، أما الآن فقد أيقنْتُ به ! »

— « أنت توقن ، ومع ذلك تتركني بين يديّ الأعداء .. تُسلّمني إلى عدوّ انكلترا وعدوّ الله ! » .

— « أنا أسلّمك إلى بكنغهام ؟ ! ماذا تقولين ؟! »

— « ماذا أقول ؟! أأروي لكَ عاري ؟ ! كم من مجرمٍ جريمتهُ عارٌ لغيره ! أأفتحُ لك صدري . أنتَ الرجل ؟ ! كلا ! .. لا أستطيع ! » .

— « إن تفتحي لِي صدركِ فإنما تفتحينَهُ لأخٍ ! » .

— « ما دام الأمر كذلك فلا بأس ! » .

ودخل عليهما في تلك اللحظة لورد ونتر ، فاضطرب الضابطُ الشابّ . وخلّصَتْهُ الليدي من المأزقِ بأن قالت للورد إنها كانت تطلبُ منه سكيناً لتتخلّصَ من حياتها . ثم خرجَ الاثنان . وبعد ذلك جاءها فلتون وأعطاها خنجراً . وقال لها إنه سيعودُ عند منتصفِ الليل لتُكمِلَ له قصّتَها . .

وبالفعل عاد فلتون وهو متعطّشٌ لسماعِ القصّة . فراحَتْ تروي له بشكلٍ مُسْهَبٍ ومُؤثّر كيف أن شخصاً ذا مكانة كبيرة قد أوقعها في فخ وكيف قاومت وذات مساء ، أقدمَ الجلادونَ الذين يستخدمهم على وضع مادّةٍ مخدّرةٍ في الماء الذي كانت ستشربهُ . ولما

أفاقتْ وَجدتْ نفسَها في مكانٍ غيرِ المكان الذي كانت فيه . ثم روَتْ له كيف كان هذا الشخصُ يأتي بين الحين والحين ويحاولُ تحطيمَ مقاومتِها فتقاومُ وتقاوم .

٣٥ . تمثيل مأساة

بعدَ لحظات من الصمت قضَتْها الليدي في مُراقبةِ الشابّ وتحليلِ التّعابيرِ المرتسمةِ على وجهه ، واصلت قصتَها قائلةً : « قضيتُ ثلاثةَ أيام لا أذوقُ فيها طعاماً أو شراباً . وكنتُ أعاني آلاماً مبرحةً من التعذيب الذي سُلّطَ عليّ . وكان يُخيّلُ إليّ أن غيوماً تَحجُبُ عينيّ ،وكان يُغمى عليّ المرّةَ بعدَ المرة. وذات يوم دخَلَ عليّ فجأة وقال : « هل غيّرتِ رأيك؟» فقلت : « لا» فالتفتَ إلى الرّجلِ المخيفِ الذي معه ، وقال له : « أيها الجلاّدُ قُمْ بواجبك » .

فألقاني الجلاّدُ على الأرض ، وأنا أستجيرُ بالله ، ثم وضَعَ حديدةً حمراء كالجمر على كتفي . فصرختُ من الألم : لقد وَصَمني بوصمة العار ! » .

ثم نهضَتْ بعزّة وقالت له ، وهي تكشفُ عن كتفها : « أنظُر ! » . فركَعَ على الأرض وراح يقبّلُ قدميْها . ثم نهضَ وصاح : « لا أطلبُ الآن منكِ سوى شيء واحد ، هو اسمُ الذي صنَعَ بكِ هذا ! أريدُ اسمَ الفاعلِ الحقيقيّ ! » .

— « ومن عساهُ أن يكون ، يا أخي ، سوى مخرّبِ انكلترا ؟! »

— « بكنغهام ؟ ! .. إذن هو بكنغهام ! .. ولكن ما صِلةُ لورد ونتر ، والدي ووليّ نعمتي ، بكلّ ذلك ؟» .

فرَوَتْ له بأنها كانت مخطوبةً إلى شقيق لورد ونتر . وقد روَتْ له ما حدثَ لها ، فتوجّهَ لقَتْل بكنغهام ، ولكنّ هذا كان قد غادرَ انكلترا ، وظلّ غائباً طوالَ عامٍ كانت ، هي ، خلالَه قد زُفّتْ إلى خطيبها .

وبعد أيامٍ من عودة بكنغهام إلى انكلترا مات زوجُها في ظروفٍ غامضة . فسافرتْ إلى فرنسا وبقيَتْ فيها . ولما كانت جميعُ ممتلكاتها في إنكلترا فقد أزمعتْ على العودة . وعلِمَ بكنغهام بعودتها ، فأخبرَ اللورد بذلك وأقنعَهُ بأن زوجة أخيه امرأةٌ موصومة ، فآمن بذلك لأن زوجَها ليس موجوداً ليدافعَ عنها . وهكذا قبَضَ عليها لورد ونتر وجاء بها إلى هذا المكان .

وكأنّ قُواها قد خارت من شدّة الانفعال ، فترنحتْ وقالت : « فلتون ، أعطني هذا الخِنجرَ لأتخلّصَ من حياتي !»

فصاح : « كلا ، كلا ! بل ستعيشينَ نقيّةً طاهرةً ! .. ستعيشينَ وتنتصرينَ على أعدائك ! » .

وفجأة دخل عليهــا اللورد ونتر ، فقال لفلتون :

«ها نحن نشهد الفصلَ الأخير من المأساة».

وكان لا بدّ أن تنقذَ الضابط الشابَّ. فأخذت الخنجر. وقبل أن يُدْرِكها ونتر. كانت قد ضرَبتْ نفسَها. غير أنها أحكمتِ الضربةَ بمهارة بحيثُ اصْطَدَمَت الشفرةُ بِصَلابَةِ المشدّ. ثم زحلَتْ لتشقّ الثوبَ وتجرحَ الجلد. وانطرحتَ الليدي على الأرض. كأنها فقدت وعيَها.

فصاح فلتون: «أترى. يا سيدي اللورد؟! ها هي قد قتلت نفسها!».

— «لا تخَفْ. يا بنيّ! .. إنها لم تمتْ! اذهب إلى حجرتي وانتظرني!» فامتثلَ أمرَ ونتر. ولكنّهُ دسّ الخنجرَ خفْيَةً في صدره.

٣٦. الهرب

كان جرحُ الليدي بسيطاً. ولهذا ما إن أصبحت وحدَها مع السيدة التي استدعاها اللورد. حتى فتحتْ عينَيْها. ولكنْ كان عليها أن تمثّل الضعْفَ والألم. وهذا من أسهلِ الأمورِ عليها.

في الرابعة صباحاً وصلَ الطبيب. وكان الجرحُ قد التأم. فأعلن أنّ حالةَ المريضة طبيعية.

ولما أصبحتْ طلبتْ من المرأة أن تترُكَها لتنام. لأنها قضَتِ الليلَ ساهرةً. والحقيقةُ أنها كانت تريدُ

أن تفكّرَ في أمرها. صحيحٌ أن فلتون قد باتَ ملكَ يمينها، ولكنّهُ غدا الآنَ موضعَ شُبْهة. ولما جاءها طعامُ الغَداء لم يَظْهَرْ فلتون. فبدأ القلقُ يُساورها.

وعند الساعةِ السادسةِ دخلَ عليها اللورد ونتر وقال: «لقد بدأتِ بإغواءِ فلتون المسكين. ولكنه لن يراكِ بعد الآن. إجمعي ملابسَكِ لترحالي غداً. كنتُ أبغي ترحيلَكِ في اليوم الرابعِ والعشرينَ من الشهر. ولكنني قدّمْتُ الموعدَ يوماً. إذ رأيتُ أنّ الإسْراعَ أفضل. غداً سأتسلّم أمرَ إبعادِكِ مُوَقّعاً من بكنغهام ...».

في العاشرةِ ليلاً سمعتْ قرعاً خفيفاً على الزجاج. ورأتْ على ضوءِ البرقِ وجهَ فلتون، فعادَ اليها الأملُ بالنجاة. وطلبَ إليها فلتون أن تبقى في سريرها ريثما ينشُرُ قضبانَ النافذة.

ولم تمضِ ساعةٌ حتى أنجزَ مُهمّتَهُ. وسألتْهُ عما يجبُ أن تحملَ معها. فأشارَ عليها بأن لا تحملَ سوى المال. إذا كان معها مال. فأتتْ بكيسٍ مملوء باللويسيّات الذهبية. فألقاه عند أسفلِ السور. ثم ربَطَ يدَيْها بمنديل. وطلبَ إليها أن تضعَ ذراعَيْها حول عُنقِهِ وراح يهبطُ بها سُلّمَ الحبالِ التي صعدَ عليها.

ولما أصبحَ عند الشاطىء صفَرَ. فأقبل قاربٌ فيه أربعةُ رجال. فنزلا فيه وتوجّها إلى المركب الشراعيّ الذي استأجره.

واتّفقا على أن تُنْزِلَهُ في بورتسموث . وتنتظرَ حتى الساعةِ العاشرة ، فاذا لم يَعُدْ ، فلتمضِ إلى المكانِ الذي تريد . وفي هذه الحالةِ سيلتقيان ، فيما بعد ، في دير « بيتوم » للكرمليّين بفرنسا .

٣٧ . في بورتسموث

كان كلٌّ من الليدي وفلتون مطمئناً إلى أن هَرَبَ السجينةِ لن يُكتشَفَ قبلَ الساعةِ التاسعة . حين كان يُحمَلُ إليها طعامُ الفطور . وبين القصرِ ولندن ثلاثُ ساعات .

ولما وصل فلتون إلى مقرّ الأميراليّة كان أشعثَ أغبرَ يتصبّبُ منه العرق . فمنعَهُ الحارسُ من الدخول . غير أنه نادى قائدَ المركزِ وأراه خطابَ اللورد ونتر . فما إن ذُكِرَ اسمُ اللورد حتى أُدخلَ على دوق بكنغهام . وكان هناك رسولٌ من فرنسا يريدُ مقابلةَ الدوق . ولكنْ بما أنه لم يذكُرِ اسمَه، فقد تقدّم فلتون عليه . وابتدرَهُ الدوق قائلاً : « لِمَ لَمْ يَحضُرِ البارون بنفسه ؟ » .

— « لقد كلّفني أن أعتذرَ لسعادتك . لأنّهُ لا يستطيعُ مغادرةَ القصرِ ! » .

— « نعم ، نعم ! .. لديهِ سجينة ! » .

— « بخصوصِ هذه السجينةِ بالذات أريدُ أن أحدّثَ

سعادتَكَ . ولكنْ يجبُ ألا يَسْمَعَ أحدٌ غيرُكَ هذا الكلام ! » .

— « حسناً ! .. دَعْنا يا باتريك . ولكن لا تَبتعِدْ ! »

قال فلتون وهو يقدّم أمرَ الإبعادِ المرسَلِ للتوقيع : « هل تعلمُ سعادتك أن الاسمَ المذكورَ في هذا الأمر . وهو شارلوت باكسون . ليس هو الاسمَ الحقيقيَ لهذه السيدة ؟ » .

فأجاب الدوق وهو يغمسُ الريشةَ في الحبر : « نعم . أعلمُ ذلك . أيها السيد ! » .

— « وهل يعرفُ صاحبُ السعادةِ الاسمَ الحقيقيَ ؟ »

— « بالطبع ! » .

— « وهل سعادتُكَ ستوقّعُ الأمرَ رغمَ معرفتك بأنها ليدي ونتر ؟ » .

— « أجل ! .. وإن كان يُدهشني أن تعرفَ أنت كلَّ ذلك ! » .

— « إنك لن توقّعَهُ . يا سيدي ! » .

قال فلتون هذا وهو يتقدّمُ نحو الدوق . وقد أخرجَ الخنجرَ الذي جرَحَتْ به الليدي نفسَها . فمدَّ الدوق يدَهُ إلى سيفه . وفي نفسِ الوقتِ فتحَ باتريك البابَ وأعلنَ وصولَ رسولٍ من فرنسا . فصرَفَتْ هذه المفاجأةُ انتباهَ الدوق . الذي تلقّى طعنةَ خنجرٍ نجلاءَ غاصتْ

في جسده ، قبل أن يتمكّنَ من الدفاعِ عن نفسهِ . فصرخ الدوق : « أيّها الخائن ! .. لقد قتلْتَني ! » .

وراح باتريك يصيح : « إلى القاتل ، إلى القاتل ! »

ولما رأى فلتون البابَ مفتوحاً ولّى هارباً . ولكنهُ التقى لورد ونتر عند أسفلِ الدّرَج ، وكان هذا يجري لاهثاً .

وصاح اللورد . وهو يُمسِك بفلتون : « لقد أدركتُ هذا متأخراً .. تأخرتُ دقيقةً واحدة ! .. يا لي من شقيّ ! »

وسلّم فلتونَ الذي لم يُبدِ أيّ مقاومة ، إلى الحرس . وعندئذ دوّت طَلْقةُ مِدفع ، تَدُلّ على أن حدثاً هاماً قد وقع .

وكان الرسولُ القادمُ من فرنسا قد اندفعَ إلى الحجرة بعد أن سقطَ الدوق ، فقال هذا بصوتٍ حائر : « لابورت ! أأنت آتٍ من قِبَلِها ؟ ! » .

واستمعَ الدوق إلى رسالةِ الملكة آنّ دوتريش قبل أن يجودَ بنَفَسِهِ الأخير. في هذه الرسالة كانت الملكةُ تطلُبُ منهُ أن يوقفَ الهجومَ على فرنسا ولا يحرّكَ الأسطول .

وتوجّهَ لورد ونتر ، الذي كان في حالةٍ يُرثى لها ، إلى الشّرفةِ التي كان يقفُ فيها المعتَقَلُ بين الحرس . وقال له : « ماذا فعلتَ أيّها الشقيّ ؟ »

— « لقد انتقمتُ ! » .

— « بل قل إنكَ كنتَ أداةً لهذه المرأة اللعينة ! ..

ولكنْ لن تكونَ هذه إلا آخرَ جريمةٍ لها ! » .

وأدرك فلتون خطأهُ عندما رأى السّفينةَ التي تحمل الليدي، في عُرْض البحر ولمّا تبلُغ الساعةُ بعدُ العاشرةَ : لقد أمرَتِ الليدي بالإقلاعِ لدى سماعِها طَلْقَةَ المِدْفع .

٣٨ . في فرنسا

كان أوّل ما أقلق ملكَ انكلترا ، شارل الأول ، عند مَقْتَلِ الدوق ، أن يؤثّر هذا النبأُ الفاجعُ في معنويات الروشليين . فحاول أن يكتُمَ الأمرَ أطولَ وقتٍ ممكن . ولهذا أوقفَ إبحارَ السفن إلى حينِ تحرّكِ الأسطولِ ، الذي أشرفَ على استكمال إعداده بنفسه ، مكانَ بكنغهام . ولكنّ سفينتَين اثنَتَيْنِ غادرتا الموانىء البريطانيةَ رغم هذه الاجراءات : السفينة الأولى هي سفينةُ الليدي ، أما الثانيةُ فسنعرفُ من حملت ، فيما بعد .

في هذا الوقت كانت جبهةُ لاروشيل كما هي ، لم يَجِدّ فيها جديد . ولما كان الملك لويس الثالثَ عشر ضَجِراً فقد قرّرَ قضاء أعياد « سان لويس » في العاصمة . وكلّفَ الكردينال أن يُعِدّ لهُ موكباً من عشرينَ فارساً لمرافقته .

وفي الحال اختارَ السيد دي تريفيل الفرسان ، الذين سيرافقون الملك ، وفي طليعتهم ، بالطبع ، فُرسانُنا الأربعة .

الذين فرحوا فرحاً بالغاً ، وعلى الأخصّ دارتانيان لأنه سيتسنّى له إخراجُ مدام بوناسيو من دير « بيتوم » ووضعُها في مكانٍ آخرَ أمين .

وكان أراميس قد تلقّى رسالةً من ابنةِ عمّه تُنبئُه فيها أنها حصلت على إذنٍ بمغادرة مدام بوناسيو دَيْرَ الكرمليّين .

واجتاز الموكبُ الملكيّ باريس في الثالثِ والعشرينَ من آب . أثناء الليل . وشكرَ الملكُ السيّدَ دي تريفيل وأذِنَ له بمنح كلّ من الفرسان إجازةَ أربعةِ أيام على ألاّ يظهروا في الأماكن العامة . وكان من الطبيعيّ أنّ تحصلَ الأصدقاءُ الأربعةُ على الإجازةِ قبلَ الجميعِ ، نظراً لمكانتهم عندَ دي تريفيل .

في مساء الخامس والعشرين دَخلوا مدينةَ « أرّاس » . وفيما كان دارتانيان يترجّلُ ليتناولَ كأساً في نُزُل « هرس دور » رأى فارساً يخرج من المحطة وينطلقُ بفرسه . فصاح دارتانيان : « إنه هو ! إنه رَجلُ « مونغ » ، الذي لا أراهُ مرةً إلا ويقعُ لي حادثٌ كريه ! .. تعالَوْا نَتْبَعْهُ ! » .

فقال أراميس : « دَعْكَ من هذا . فطريقُنا غير طريقِه .. ثم إنّ خيولَنا تَعِبَةٌ وحصانُهُ مستريح ! » .

في هذا الوقتِ كان أحدُ الخدمِ يُنادي الفارسَ المنطلق : « سيدي ، سيدي ، هذه الورقةُ سَقَطَتْ منك ! » .

ولكنّهُ كان قد ابتعد . فدَفَعَ لهُ دارتانيان فيها

نِصفَ بستول وأخذها . وكان مكتوباً في هذه الورقة « أرمانتيير » . واحتفظوا بها دون أن يَعلَموا بالتحديد ما هي هذهِ المدينةُ أو القرية .

• • •

نزلت الليدي في بولونيا ، لأنها لم تكن تستطيع أن تذهب إلى لاروشيل . ومن هناك بعثت بالرسالة التالية إلى الكردينال :

« إلى صاحبِ النيافة سيّدنا الكردينال دي ريشليو ، بمُعَسْكرِهِ أمامَ مدينةِ لاروشيل .

« ليَكُنْ صاحبُ النيافة مطمئناً : فسعادةُ دوق بكنغهام لن يتوجّهَ إلى فرنسا .

بولونيا – مساء ٢٥ آب . ليدي ...

« ملاحظة : سأتوجّهُ ، حسبَ رغبةِ نيافتِكُم ، إلى دير الكرمليّين في بيتوم حيث أنتظر الأوامر » .

وفي صباحِ اليومِ الثاني وصلت الليدي إلى دير بيتوم ، حيث قابلتِ الرئيسةَ وأطلعَتْها على أمرِ الكردينال ، فأفردَتْ لها غرفةً لائقة .

وما لبثت الليدي أن جَذَبَتْ إليها الرئيسةَ بذكائها وحُسْنِ تصرّفها ، ومعرفتِها بنفسيات الناس . وقدّمت إليها الرئيسةُ مدام بوناسيو ، فاستطاعت الليدي أن تكسبَ ثقتها . فاعترفتْ لها المسكينةُ بحبّها لدارتانيان ، وأعلنَتْ

لها أنه سيأتي في ذاتِ اليومِ أو في الغداة . وفي غمرةِ فرحتِها الطاغيةِ أطلعَتْها على الرسالة التي تلقتْها من ابنة عمّ أراميس . فما إن رأتْها الليدي حتى عرفَتْ خطّ مدام دي شيفروز . وقد أعلنت لها كاتبةُ الرسالةِ أن دارتانيان سيأتي ليأخذَها إلى مكانٍ آخر ، تَضْمَنَ فيه سلامتَها .

وبينما هما كذلك إذْ أقبلَ فارسٌ يسألُ عن السيدة القادمة من بولونيا . فجاءت الرئيسةُ إلى الليدي وأخبرتْها بذلك فخرجتْ مدام بوناسيو ليَدْخلَ على الليدي : الكونت دي روشفور .

٣٩ . قطرة الماء

أطلقَ كلٌّ من الليدي والكونت دي روشفور صيحةَ الفرح : « أهذا أنتَ ؟ .. من أين أقبلتَ ؟ » .

— « من جبهة لاروشيل ! .. وأنتِ ؟ » .

— « من انكلترا ! » .

— « وبكنغهام ؟ » .

— « اغتاله رجلٌ متعصّبٌ .. ولا أدري إن كان قد مات أو أصيبَ إصابةً خطرة ! » .

— « إنه خبرٌ سيفرح له نيافتُهُ ! .. هل أعلمتِهِ بذلك ؟ » .

— « أرسلتُ إليه خطاباً من بولونيا ! » .

— « كان قلِقاً عليكِ ، وقد أرسلَني لاستطلاعِ أخبارِكِ » .

— « وصلتُ أمسِ .. ولكنني لم أُضِعْ وقتي .. أتعرِفُ من قابلتُ هنا ؟ » .

— « من ؟ » .

— « مدام بوناسيو ، التي لم يكنِ الكردينال يعرِف مقرَّها ! ..أ صبحتُ أعزّ صديقةٍ عندها !.. أتدري بماذا أخبرتْني ؟ » .

— « بماذا ؟ » .

— « بأنهم سيأتونَ لأخذِها بأمرٍ من الملكة ! » .

— « من ؟ » .

— «دارتانيان وأصدقاؤه! ماذا قال لكَ الكردينال بشأني ؟ »

— « بعدَ أن أعودَ اليه بتقريرِكِ ، سيرسل إليكِ أوامرَه ! » .

— « أعليّ أن أبقى إذنْ هنا ؟ » .

— « هنا أو قريباً من هنا ! .. ولكنْ أخبريني إلى أينَ يجبُ أن تُرسَل إليكِ الأوامر ! ؟ » .

فكتبتْ له على رُقْعةٍ من الورق اسمَ المدينة الصغيرة التي ستأوي اليها ؛ وهي « أرمانتيير » التي تقع على نهر « ليْسي » . وهذه هي الورقةُ التي اشتراها دارتانيان بنصف بستول في « أرّاس » . وطلبت منه أن يُرْسِلَ اليها عربتَهُ .

بعد رحيل روشفور دخلت مدام بوناسيو ، وقالت لليدي : « إذنْ فقد حدثَ ما كنتِ تخشَيْنَهُ ؟ وسيأخذُكِ الكردينالُ اليومَ أو غداً ؟ » .

– « من قال لكِ هذا ، يا صغيرتي ؟ » .

– « سمعتُهُ من فمِ الرسول ! » .

– « تعاليَ اجلسي بجانبي .. سأتأكدُ من أن أحداً لا يسمعُنا ! » . وفتحت الليدي البابَ ونظرتْ إلى الممرِّ ثم عادت . وراحت تحدِّثُ مدام بوناسيو : أوهمتْها بأنَّ الذي جاء إنما هو شقيقها ، وقد جاء ليخطفَها .. قابل رسولَ الكردينال وأخذ منه أمرَ إخراجها بعد أن قتلَهُ .. وكانت هذه هي الوسيلةَ الوحيدةَ لإنقاذها .. وستأتي عربةٌ بعد ساعة أو ساعتَيْن لإخراجِها من سجنها .

كذلك أدخلت في رُوْعها أن الرِّسالةَ التي تلقَتْها من مدام دي شيفروز مزيَّفة ، وأنها عبارةٌ عن فخٍّ لها : إن أعداءها يريدونَ خطفَها ، والرسالةُ هي لتهدئةِ مخاوفها حتى لا تقاوِم . ولما قالت لها مدام بوناسيو إن دارتانيان نفسَهُ هو الذي سيأتي أكّدَتْ لها أن دارتانيان ورفاقَهُ موجودونَ في الجبهة .. وقد أخبرَها بذلك أخوها . وتم الاتفاقُ بين الاثنتَيْن على أن تهْرُبَ مدام بوناسيو معها . وأشارت عليها بأن تطلُبَ من رئيسةِ الديرِ السماحَ لهما بتناوُلِ الغداء والعَشاء معاً لتكونَ على استعدادٍ كاملٍ وقتَ الرحيل .

كانت خِطةُ الليدي هي أن تخطُفَ مدام بوناسيو . بحيثُ تكونُ رهينةً بين يدَيْها . ولكنَّ الأمورَ جرَتْ على نحوٍ آخر :

عندما أقبلَ خادمُ روشفور أمرَتْهُ الليدي أن ينتظرَها عند الباب . فاذا قدِمَ الفرسانُ فعَلَيْهِ أن يدورَ حولَ الدَّيرِ ويذهبَ إلى القريةِ القريبةِ حيثُ ستأتيهِ سيراً على الأقدامِ عن طريق الغابة . وبينما كانت مدام بوناسيو في حُجرةِ الليدي وعلى أهبةِ الاستعدادِ للرحيل ، سمعتْ هذه وَقْعَ حوافرِ خيولٍ قادمة ، ورأتْ عند المنعطَفِ وجهَ دارتانيان فقرّرت أنْ تتخلّصَ من مدام بوناسيو قبل أن تُفْلِتَ من يدِها . وكانت هذه مُتْعَبةً خائفةً ، فقدّمتْ اليها كأساً من النبيذِ وَضعَتْ لها فيها سُمّاً قتّالاً . ثم انطلقت هاربةً من الباب المؤدّي إلى الغابة ، في الوقتِ الذي كان يدورُ فيه سائقُ العربةِ حولَ الديرِ ويتّجهُ إلى القريةِ القريبةِ كما أشارت عليه .

واندفعَ دارتانيان وصَحْبُهُ إلى الحُجْرَة ، ولكنَّ مدام بوناسيو كانت منطرحةً على المقعدِ لا تستطيعُ حَراكاً . وصاحَتْ إذْ رأتهُ يدخل : « دارتانيان ! دارتانيان ! حبيبي ! » .

– « كونستانس ! كونستانس ! » وراحَ يحتضنها

حنان . قالت :

« ها أنتَ قد أتيتَ ! .. قالت لي إنك لن تأتي ! »

— « من ؟ » .

— « هي ! » .

وهنا رأى الكوبَ بجانبها ، فسألها بقلقٍ بالغ إذْ رأى حالَها : « من أعطاكِ هذه الكأس ؟ » .

— « هي ! »

— « هي مَن ؟ » .

— « كونتيس دي ونتر ! » .

فصاح دارتانيان : « إليَّ ، يا إخواني ! إن يدَيْها قد بَرَدَتا ! »

وما هي سوى لحظات حتّى كانت كونستانس تلفظُ أنفاسَها الأخيرةَ بين ذراعَيْ دارتانيان ، الذي ما لبِثَ أن أُغمي عليه وهو يراها جثةً هامدة .

في هذه اللحظةِ ظهرَ في الباب رجلٌ شاحبُ اللون .

وقال هذا الرجل : « لم أخطىء ، هذا دارتانيان وأنتم رفاقهُ السادةُ أتوس وبورتوس وأراميس ! .. إننا جميعاً في طلب امرأةٍ لا بُدَّ أنها مرّتْ من هنا ؛ لأنني أرى وراءها جُثّةً ! .. أنا لورد ونتر . شقيقُ زوج المرأة التي تطلبون ! » .

قال أتوس وهو يمدّ إليه يده : « مرحباً بك ، يا سيّدي

اللورد ! .. أنت واحدٌ منا ! » .

قال اللورد : « لقد تركتُ بورتسموث بعدَها بخمس ساعات . ووصلت إلى بولونيا بعدها بثلاث . وأخطأتُها بعشرينَ دقيقةً في « سانتومير » . ولكني فقَدْتُ أثرَها في « ليلبيه » فرحتُ أسيرُ على غيرِ هدى . ولما رأيتُكم منطلقينَ بخيولكم عرَفْتُ السيد دارتانيان ، فناديتُكم ، فلم تسمعوني . وكان جوادي تعباً لا يُمكّنُني من اللّحاقِ بكم .. ورغمَ سُرعتِكم ها أنتم تصلونَ متأخرين » .

وفي هذه اللحظةِ فتحَ دارتانيان عينَيْه ، وطفِقَ يبكي . فاقتربَ منه أتوس وقبّلَهُ بحنان وقال له : « كُفَّ عن هذا ، يا أخي ! ان النساء اللواتي يَبْكينَ الموتى ، أما الرجالُ فيثأرون لهم ! » .

ودعا الرفاقُ الرئيسةَ . فلما حضرت قال لها أتوس : « إننا نترُكُ هذهِ المرأةَ المسكينةَ لعنايتك ! .. لقد كانت ملاكاً على الأرض قبلَ أن تُصبح ملاكاً في السماء ! إهتمّي بدفنِها كواحدةٍ من أخواتك .. سنأتي يوماً لزيارة قبرها ! »

وتوجّه الجميعُ إلى مدينة « بيتوم » ونزلوا في أوّلِ فندقٍ رأوْه .

٤٠ . ذو المعطف الاحمر

انسحب أتوس . تلك الليلة ، إلى حُجرته في آخر

السهرة بعد أن طلب من صاحب الفندق أن يحصل له على خريطة للمنطقة . ولما أحضرت الخريطة أكب عليها وتتبع خطوطها . فعلم أن هناك طرقاً أربعاً تصل ما بين « بيتوم » و « أرمانتيير » . فدعا إليه الخدم : بلانشيه وغريمو وموسكتون وبازان ، وأراهم الخريطة وطلب إليهم أن يذهبوا إلى أرمانتيير بحيث يسلك كل منهم طريقاً من هذه الطرق . وكلف بلانشيه ، الذي كان أذكاهم ، أن يذهب في الطريق التي اتجهت إليها العربة . وأمرهم بأن يتجمعوا في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي . فإذا كانوا قد اكتشفوا مقر الليدي . فعلى ثلاثة منهم أن يظلوا هناك محيطين بالمكان ، وعلى الرابع أن يعود إلى بيتوم ليقوم بمهمة الدليل .

بعد هذا خرج أتوس من الفندق . وراح يسأل عن منزل معين . في هذا المنزل قابل رجلاً سنعرف من هو فيما بعد .

في اليوم التالي حضر الرفاق الأربعة واللورد ونتر دفن كونستانس المسكينة وعادوا إلى الفندق حيث وجدوا بلانشيه . وسألوا أتوس : « ماذا نفعل ؟ » قال : « ننتظر ! » . وفي الساعة الثامنة أصدر أتوس الأمر بالاستعداد . ولما ركبوا خيولهم ، طلب اليهم أن ينتظروه ، وانطلق بجواده . ولم يمض ربع ساعة حتى عاد وفي صحبته رجل طويل

يضع قناعاً على وجهه ويلتف بمعطف أحمر .

في الساعة التاسعة سار الركب . ودليله بلانشيه . وكان أول من قابلهم من الخدم في « ارمانتيير » هو « غريمو » ، الذي أشار إلى منزل صغير على ضفة نهر « ليس » . فجاءوا ووقفوا عند الباب ، بينما اقترب أتوس من النافذة . ومن خلال الزجاج رأى امرأة تجلس على كرسي صغير بجانب نار تموت . كانت تعتمد بمرفقيها على مائدة رثة وتضع رأسها بين يديها . فعرفها أتوس ، رغم أن وجهها لم يكن ظاهراً . وصهل أحد الجياد ، فرفعت رأسها ورأت وجه أتوس ملتصقاً بالزجاج ، فانطلقت من فمها صيحة رعب . عندها دفع أتوس الزجاج وقفز إلى الحجرة . فجرت « ماي ليدي » إلى الباب لتهرب ، فاذا بها وجهاً لوجه أمام دارتانيان . وكان دارتانيان يحمل مسدساً . فقال له أتوس : « أعد مسدسك إلى مكانه ، يا دارتانيان فهذه المرأة يجب أن تحاكم لا أن تقتل ! » .

وانهارت الليدي على الكرسي مادة ذراعيها مسترحمة : « ماذا تريدون ؟

أتوس : « نريد شارلوت باكسون ، التي دعيت أولاً كونتيس دي فير ، ثم ليدي دي ونتر ، بارونة شيفيلد ! »

الليدي : « أنا هي ، أنا هي ! .. ماذا تبغون أن تفعلوا بي ؟ » .

أتوس : « نريدُ محاكمتكِ على الجرائمِ التي ارتكبْتِها ، وأنتِ حرّةٌ في الدفاع عن نفسكِ وتبريرِ أعمالكِ ، إن استطعتِ ! .. سيد دارتانيان ! قدّمْ ما لديكَ من اتهامات ! » .

دارتانيان : « أمامَ الله وأمامَ الناس أتّهمُ هذه المرأةَ بتسميم كونستانس بوناسيو التي قضتْ نحبَها مساء أمس ! » .

بورتوس وأراميس : « نشهدُ بذلك ! » .

دارتانيان : « أمامَ اللهِ وأمامَ الناس أتّهمُ هذه المرأةَ بمحاولة تسميمي بنبيذ مسموم أرسلتْه من « فيلرورا » باسمِ أصدقائي ، وقد نجوتُ . ولكن رجلاً آخرَ ، يُدعى بريزمون ، لقيَ حتفَهُ مكاني ! »

بورتوس وأراميس : « نشهد بذلك ! » .

دارتانيان : « أمامَ الله وأمامَ الناس أتّهمُ هذه المرأةَ بأنها حرّضَتْني على قتْلِ البارون دي واردس ، ولما كان لا يوجد أحدٌ للشهادة فأنا أشهدُ بنفسي على ذلك ! .. هذا كلّ ما عندي ! » .

ثم أنضمّ إلى بورتوس وأراميس .

أتوس : « دَوْرُك الآن ، يا سيدي اللورد ! » .

اللورد : « أمامَ اللهِ وأمامَ الناس أتّهمُ هذه المرأةَ بتدبيرِ اغتيالِ دوق بكنغهام ! » .

فصاح الجميع بصوت واحد ، دهشين :

« دوق بكنغهام قُتِل ؟ ! » .

اللورد : « نعم ! .. على أساس الرسالة التي بعثْتُم بها إليّ . اعتقلتُ هذه المرأةَ . وتركتُها في حراسة تابعٍ أمين . فأغوتْ هذا الرجلَ . ووضعَتِ الخنجرَ في يده . ودفعتْهُ إلى قتل الدوق . وهو الآن على وشك أن يُعْدَمَ بسبب هذه الجريمةِ النكراء ! .. ليس هذا كلّ شيء . بل إن أخي . الذي تعلمون أنها وريثتُهُ الوحيدةُ قد مات في مدى ثلاث ساعات . بمرض عجيب يتركُ آثاراً صفراء في جميع أنحاءِ الجسد ! وإذا لم تقتصّوا من هذه المرأةِ المسؤولةِ عن الجرائمِ الثلاث فإني أعلنُ أنني أنا الذي سأقتصّ منها ! » .

أتوس : « والآن جاء دوري أنا : لقد تزوّجْتُ هذه المرأةَ عندما كانت فتاةً . فأعطيتها اسمي وأملاكي . وذاتَ يومٍ اكتشفتُ على كتفِها وسماً لزهرةِ زنبق . وهو وصمة العار ! » .

فصاحت الليدي : « إنني أتحدّاكم أن تُسمّوا المحكمةَ التي لنطقت بحقي هذا الحكم الشائن ! » .

فتقدّمَ الرجلُ المقنّعُ . وقال :

« أنا أردّ على هذا ! » .

الليدي : « ومن يكون هذا الرجلُ ؟ » .



ماي ليدي

هنالك تقدَّمَ منها ذو المعطفِ الأحمرِ بخطىً وئيدةٍ ووقفَ مُواجهتها ، ثم نزعَ القناعَ عن وجهه! » فتراجعتِ الليدي مذعورةً وهي تقول :

« لا ، ! ليس هو ! .. إن هذا شبحٌ جهنّميّ ! إليّ ! إليّ ! » وصاح الشهود :

« ولكنْ ، من أنتَ ؟ » .

« إسألوا هذه المرأة ! » .

الليدي : جلّادُ « ليلْ » ! جلّادُ « ليلْ » ! .

الجلّاد : أجل ! أنا جلّاد « ليلْ » . وهذه هي قصّي : كانت هذه المرأةُ جميلةً . وهي فتاةٌ بقدْر ما ما هي جميلةٌ الآن . وكانت راهبةً في دير « البندكتيين » بتمبلمار . وكان خادمُ الكنيسةَ راهبٌ ذو قلب ساذَج . فعملتْ على إغوائه وحرّضته على الهربِ معها خارج المنطقة . ولكن الهرب يتطلّب مالاً . فأقدمَ الكاهنُ على سرِقة الأواني المقدّسة . وبيعها . ولكنْ أُلقي عليهما القبضُ قبل أن يتمكنا من الرحيل .. بعد ثمانية أيام تمكّنتْ من إغواء ابن السجّان . والهرب بمساعدته . أما الراهبُ فقد حُكِمَ عليه بالسّجن لمدة عشرِ سنوات وبالوَصْمِ . وكنت أنا جلّادَ مدينة « ليلْ » . فاضطُرِرْتُ إلى وصم الجاني ! أما

الخاني ، أيها السادة ، فلم يكن سوى أخي ! ..
فأقسمتُ على أن تنال المرأةُ التي أوردتْهُ هذا
المَوْرِدَ نفسَ العقاب . وهكذا تتبّعتُها وقبضْتُ
عليها ، ثم قيّدْتُها ووَصَمْتُها .. وفي اليومِ
التالي لعودتي إلى « ليل » تمكّن أخي من الهرب
بدَوْره ، فاتّهِمْتُ بالتواطؤِ معهُ وحُكم
عليّ بأن أُسجَنَ مكانَهُ ، ما لم يستسلمْ . ولم
يَعْرِفْ أخي المسكينُ بهذا الحكم . وكان قد
لحقَ بهذه المرأة ، فهربا معاً إلى « بيري » حيث
استطاعَ أن يُصبحَ كاهناً في كنيسةٍ صغيرة ،
ومثّلَتْ هي دورَ أختٍ له . ورأى السيد، الذي
كان يملكُ الأرضَ التي تقومُ عليها الكنيسة ،
أختَ الكاهنِ المزعومةَ فأُولِعَ بها وعرَضَ
عليها الزواج . عندها تركت ذاك الذي قضتْ
عليه ، لتتزوّجَ الرجل الذي ستَقضي عليه، وبذلك
حملت اسمَ : الكونتيس دي فير . »

واتّجهت جميعُ الأنظار إلى أتوس ، الذي كان هذا هو
اسمَهُ الحقيقيَّ ، فهزّ رأسَهُ موافقاً على كلّ ما قالهُ الجلاّد ..
وأكمل هذا قائلاً : « وبعد أن فقد أخي المسكينُ كلّ آماله ،
قرّرَ أن يتخلّصَ من حياتِهِ . فعاد إلى « ليل » حيثُ علمَ أنني
أحتلّ محلّهُ في السجن ، فاستسلم . وفي مساء نفسِ اليومِ

سنق نفسَهُ في الزنزانة ! .. ها هي الجريمة التي أتّهِمُها بها ،
وهذا هو السببُ الذي وصَمْتُها من أجله . » .
عندها طالب الجميعُ بإنزال عقوبةِ الإعدامِ بالمتّهمَة ،
وأعلَنَ أتوسُ هذا الحكم .

٤١ . الاعدام

كان الوقت يقاربُ منتصَفَ الليل ، وقدِ ارتفعَ القمرُ
وراء مدينةِ أرمانتيير الصغيرة . وفي مواجهةِ المنزلِ كان
يجري نهرُ « ليْس » ، كأنه ذَوْبٌ من القصدير . وكانت
هياكلُ الأشجارِ السوداء ترتسمُ على سماء تكتنفُها كتلٌ
من الغيومِ النحاسية . وكان خادمانِ يقودان المتّهمَة، وقد
أمسك كلّ منهما بإحدى ذراعيها ، ويسير وراءهمُ الجلاّد ،
ثم في المؤخّرة كلّ من اللورد ونتر ودارتانيان وأتوس
وبورتوس وأراميس .

كانت الليدي صامتة ، ولكنّ عينيها كانتا تذهبانِ من
خادم إلى آخرَ لكسْب عطف كلّ منهما . بعد ذلك همستْ
قائلةً لهما : « إنني أعطي كلاً منكما ألف بستول إذا غطّيْتُما
هربي . أما إذا أسلَمْتُماني إلى سادتِكما فإن لي أصدقاءَ
هنا سينتقمونَ لي شرّ انتقام ! » .

فسارعَ أتوس ، الذي سمعَ الهَمس ، إلى التقدّم ،
وقال : « أبْعِدوا هذينِ الخادمين ، فقد تحدثتْ إليهما ! »

فصاحت الليدي قائلة : « أيها الجبناء! أيها القتلةُ الأشقياء
لقد تجمّعتم عشرةً لتذبحوا امرأة! ولكن إذا لم أُنجَدْ فسيؤخذ
بثأري ! » فأجاب أتوس بقوله : « أنت لست امرأة .
ولستِ حتى من الجنس البشري ! إنما أنتِ شيطانٌ فرّ من
الجحيم ، وسنُعيدُهُ إلى حيثُ كان ! »
ولما وصلوا إلى شاطىء النهر ، أنزلها الجلادُ في زورق ،
ونقلها إلى الضفّة الثانية حيث نُفّذَ فيها الحكمُ بالسيف .

٤٢ . الخلاصة

في السادسِ من الشهرِ التالي عاد الملك إلى لاروشيل ،
كما وعدَ الكردينال . وكان نبأ مقتل بكنغهام قد أحدث تأثيراً
هائلاً في فرنسا . أما الملكةُ فلم تشأ أن تصدّقَهُ ، حتى جاء
« لابورت » وأكّدهُ لها . وأما الملكُ فلم يستطع إخفاءَ
فرحته . ولكنه ما لبث أن عادت إليه كآبتُهُ ، لاضطراره
للرجوع إلى لاروشيل والعيشِ تحت سيطرة الكردينال .
كذلك كانت حالُ الفرسانِ الأربعةِ الذين دُهشَ
رفاقُهُم عندما رأوْهم يسيرون صامتين ، وغيومُ الحزن تعلو
جباهَهم . في أثناء الطريق توقّف الملك للقَنْص ، ولكنَّ
الفرسانَ الأربعةَ ، بدَلَ أن يتبعوه ، توجّهوا إلى حانةٍ على
الشارع الرئيسي. وفيما هم كذلك وَصَلَ رجلٌ من لاروشيل ،
ووقف في باب الحانة ونادى : دارتانيان . ونظر هذا إلى

القادم وأطلق صيحةَ فرَح : كان هذا هو رجلَ مونغ ،
الذي يُسَمّيه « شبحَه » . هنالك جرّدَ دارتانيان سيْفَهُ
واتجهَ نحو الباب . وفي هذه المرّة ترجّلَ الغريبُ وتقدّمَ
للقاء دارتانيان الذي قال :
— « لن تُفلِتَ مني . هذه المرةَ . يا سيدي ! » .
— « بل أنا الذي أطلبُكَ في هذه المرة : إنني ألقي عليك
القبضَ باسْم الملك ! فعليك أن تسلّمني سيفك دون مقاومة .
وإلا فانك تجازفُ بحياتك ! » .
قال دارتانيان وهو يَخفِضُ سيفَهُ دون أن يسلّمه :
— « ومن أنت . يا سيدي ؟ » .
— « أنا الكونت دي روشفور . مرافقُ سيادة الكردينال
دي ريشليو ، ولديّ أمرٌ باقتيادك اليه ! » .
فتقدم أتوس وقال : « إننا عائدون إلى حيثُ يوجدُ
نيافته ، يا سيدي . وفي استطاعتك أن تعتمدَ على كلامِ السيد
دارتانيان بأنه متوجّه تواً إلى لاروشيل ! »
— « عليّ أن أسلّمَه إلى الحرس ! » .
— « سنكون نحن حرَسَهُ .. كلام نبلاء ! .. وكلام
نبلاء أيضاً : لن يتركنا دارتانيان ! » .
قال أتوس هذه الفقرةَ الأخيرةَ وهو يَعقِدُ ما بين حاجبيه .
ورأى روشفور بورتوس وأراميس يقفان عند الباب .
فوجد أنه تحت رحمة الأربعة . فقال : إذن فليسلّمني سيفه

ولْيَنْضَمّ وعدَه إلى وعدكم ! » فأجاب دارتانيان : « لك وعدي ، يا سيدي ! وإليك سيفي ! » .

وعاد الجميع إلى الجبهة ، ومثَلَ دارتانيان بين يدَيْ الكردينال ، الذي قال له إنه متّهم بالاتصال بالأعداء ، والاطلاع على أسرار الدولة، فأجاب دارتانيان بجرأة: «ومنذا الذي ينسبُ إليّ هذا يا سيدنا ؟ إنْ هي إلا امرأةٌ موصومةٌ من قِبل العدالة، تزوجتْ رجلاً في فرنسا وآخرَ في انكلترا وقتلت زوجَها الثاني بالسّم، وحاولتْ قتلي، أنا نفسي! » .

— « عمن تتحدث ؟ » .

— « عن ليدي ونتر ، التي لم يكن سيدُنا يعرف جرائمها ، فأولاها ثقته! » . وروى دارتانيان للكردينال كلّ ما حدث . قال الكردينال : « وهكذا نصّبتُم أنفسكم قضاةً دون أن تفكّروا ان الذين يعاقبون ، وهُم غير مكلّفين بذلك ، يُعَدّون قتلَة ! » .

وهنا أخرج دارتانيان الورقةَ التي انتزعها أتوس من الليدي وفيها يعلن ريشليو أن حاملَ الورقةِ قد فعَلَ ما فعلَ بأمره ومن أجل مصلحة الدولة . فصمَتَ الكردينال مفكراً ، ثم مزّقَ الورقةَ بهدوء . وكتب أمراً بمنصب قيادة في سلاح الفرسان وتركَ مكانَ الاسمِ فارغاً . فراح دارتانيان يشكر الكردينال. ونادى هذا الكونت روشفور وقال له: «إن السيد دارتانيان قد أصبحَ في عداد أصدقائي، فيجب أن تتصافيا! ».

وحمل دارتانيان الورقةَ إلى أصدقائه واحداً واحداً لأنهم

أحقّ منه بالقيادة . فأما أتوس فقال إن هذه القيادةَ قليلةٌ على الكونت دي فير . وأما بورتوس فقال إن الدوقةَ التي يحبها قد مات زوجُها ، لذا فهو سيتزوّجها ويترك الخدمة . وأما أراميس فقال انه يريدُ أن يدخلَ في خدمة الكنيسة . وهكذا كتب أتوس في الفراغِ اسم دارتانيان .

٤٣ . الخاتمة

بعد أن حُرِمَتْ لاروشيل من معونة الأسطولِ الانكليزيّ والجيشِ الذي كان سيرسلُه بكنغهام ، لم تجدْ أمامها سوى الاستسلام ، بعد حصارٍ دام عاماً كاملاً . ووُقّعَ صكّ الاستسلامِ في ٢٨ تشرين الأول عام ١٦٢٨ .

وفي الثالث والعشرين من كانون الأول من نفس العام ، عاد الملكُ إلى باريس حيث استُقْبِلَ أعظمَ استقبالٍ كأنه انتصرَ على الأعداء ، لا على فرنسيّين مثله .

وتسلّم دارتانيان قيادتَهُ ، وتزوّجَ بورتوس مدام كوكنار . واختفى أراميس ، ولم يعد يكتبُ لرفاقه . وعُلِمَ فيما بعدُ أنه ترهّب ودخل دير نانسي . أما أتوس فقد ظل في سلاح الفرسان ، تحت إمرة دارتانيان ، إلى عام ١٦٣١ . بعد ذلك ترك الخدمةَ ، على أساس أنه حصل على إرثٍ في « روسيّون » .

انتهى

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

- سلسلة كتب جديدة للمطالعة تلبي حاجة الفتيان والفتيات في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة .
- أشرف على تلخيصها عن روائع الادب العالمي نخبة من كبار الكتاب العرب .
- اخراج جديد . لوحات بالالوان تجليد فاخر .

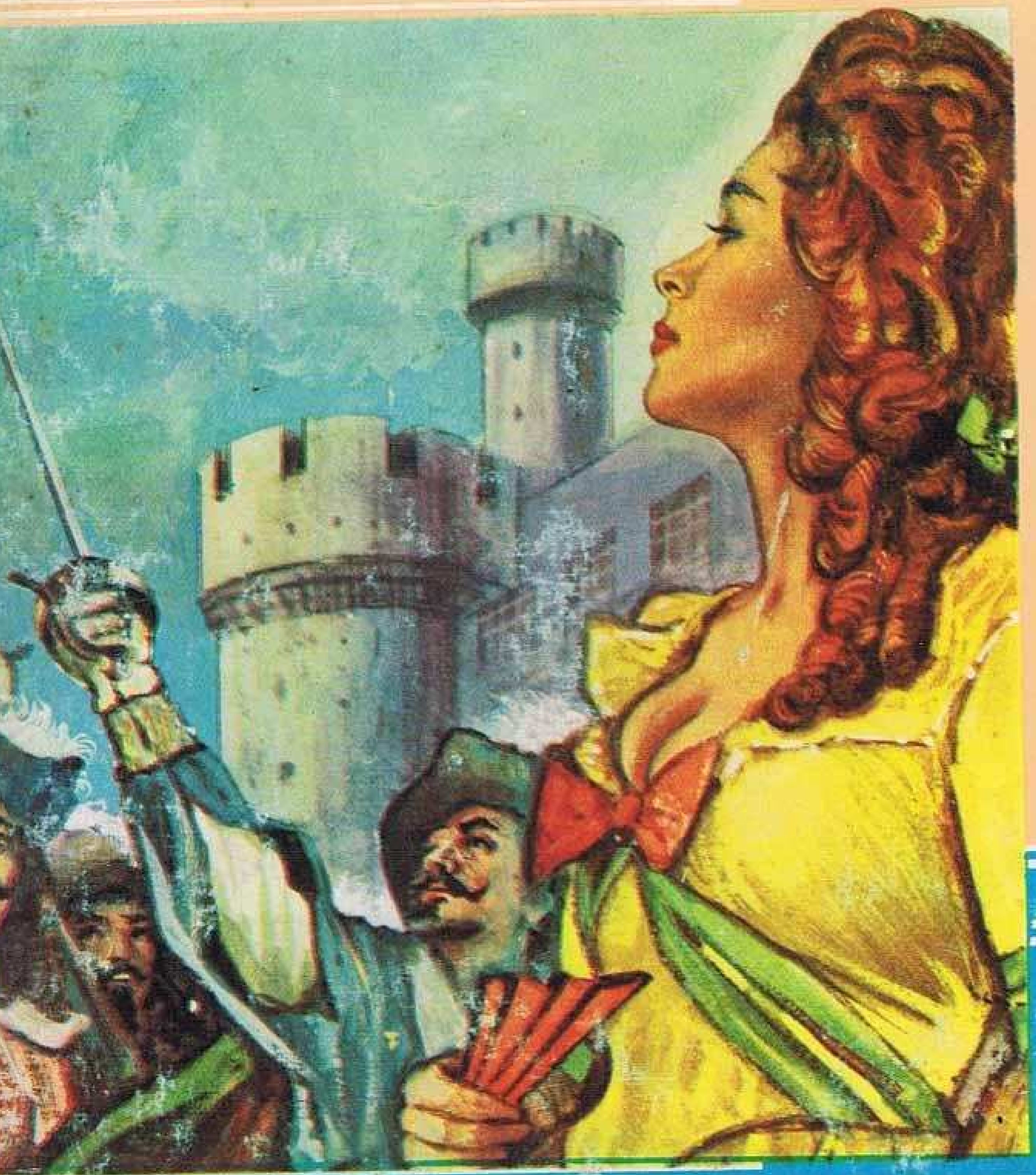
صدر منها :

١ ــ روبنسون كروزو
٢ ــ كوخ العم توم
٣ ــ آخر ايام بومباي
٤ ــ جزيرة الكنز
٥ ــ البؤساء
٦ ــ دايفيد كوبرفيلد
٧ ــ حول العالم في ثمانين يوما
٨ ــ قصة مدينتين
٩ ــ اوليفر تويست
١٠ ــ الزنبقة السوداء
١١ ــ القلعه
١٢ ــ مرتفعات ويذرنغ
١٣ ــ الفرسان الثلاثة
١٤ ــ آيفنهو
١٥ ــ دون كيشوت
١٦ ــ بائعة الخبز
١٧ ــ احدب نوتردام
١٨ طفل من غير اسرة
١٩ كولومبا
٢٠ تمرّد على السفينة باونتي



الفرسان الثلاثة

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



دار العلم للملايين
بيروت